محمّد فريد سيالة

اعترافات إنسان

رواية



كتاب الدوحة

اعترافات
إنسان

يُوزّع مجّاناً مع العدد (111) من مجلّة «الدوحة» - يناير - 2017

اعترافات إنسان

تأليف: محمّد فريد سيالة

الناشر:
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:
الترقيم الدولي (ردمك):

العمل الفني للغلاف: مدينة طرابلس الليبية، في الخمسينيات
الإخراج والتصميم: القسم الفني - مجلّة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كتّابها، ولا تُعبِّر -بالضرورة- عن رأي الوزارة أو المجلّة.

محمّد فريد سيالة

اعترافات إنسان

رواية

كتاب الدوحة

الإهداء:

إليها..

إلى بطلتها....

إلى كلّ امرأة...

فريد

تقديم

اعترافات إنسان.. الرواية والكاتب

د. أحمد إبراهيم الفقيه

ينتمي مؤلِّف هذه الرواية الرائدة، الأستاذ محمد فريد سيالة (1927-2008)، إلى جيل من المثقّفين العصاميين من أبناء ليبيا، الذين تزامن وصولهم إلى سنّ البلوغ والنضج، مع انتهاء المرحلة الكولونيالية، وبدء الإرهاصات بمولد الدولة الليبية المستقلّة، وتأسيس بنيتها التحتية، في مجال كلٍّ من التعليم والثّقافة والإدارة والسلطة المدنية، في بيئة مجدبة قاحلة، وأرض احالتها الحروب إلى حقول من رماد، وكان الأستاذ سيالة قد وصل، عشية انتهاء الحرب العالمية الثانية (1939-1945)، إلى مشارف العشرين من عمره، وانخرط في دورة لإعداد المعلِّمين للمدارس الابتدائية، وهي المهنة التي باشر القيام بها منذ عام 1948. وكانت هذه الدورة، كلّ ما كان متاحاً من تعليم متوسِّط يستطيع الفتى، في طرابلس، الحصول عليه، فلا وجود للتعليم الجامعي، بأيّ نوع من أنواعه، ولم تنشا الجامعة في ليبيا إلّا بعد هذا التاريخ بعشرة أعوام، حتى المدارس الثانوية ذات المنهج العربي لم تنشأ إلا في ذلك التاريخ؛

ولهـذا فالجيـل الـذي انتمى إليـه مؤلِّف هـذه الرواية، جيـل اعتمد على تحصيلـه الشـخصي، عـبر القـراءة والانتسـاب إلى الدورات الدراسـية، بمـا في ذلـك الانتسـاب إلى دورات لتعليـم اللغـات الأجنبيـة، التي أجاد منهـا الإيطاليـة، إجـادة الإيطاليـين أنفسـهم، وشرع في تحرير قاموس عربـي إيطـالي في أواخـر عمره، بـل كتب بهـا مقـالات، نشرتها صحف ناطقـة بالإيطاليـة. هـذا التكويـن الثّقـافي الـذي حصل عليـه بالجهد الذاتـي، هـو الـذي تمكَّن مـن تأهيلـه لممارسـة دوره الريـادي في عدّة مجـالات، لـم يكن المجـال الأدبي إلّا واحـداً منهـا، لأن لـه دوراً ريادياً في مجـال التعليـم، كونـه مـن جيـل المؤسّسـين للبنيـة التعليميـة في ليبيـا، وهـو رائد في المجـال النقابي، لأنـه كان وراء تأسـيس أوَّل نقابة للمعلِّمـين، تـولّى دوراً قياديـاً فيها، وأصدر، باسـمها، مجلّـة، كان هو رئيـس تحريرهـا، في مطلـع الخمسـينيات، اسـمها «صـوت المربّـي»، أعطـت مسـاحة كبيرة لـلأدب، وكرَّسـت أعـداداً خاصّـة لأنـواع أدبيّة لـم تكـن قـد تجـذَّرت في تربـة الأدب الليبي، مثـل العدد الـذي أصدره عـن القصّـة القصـيرة، واعتمد عليـه الكاتب الراحل بشـير الهاشـمي، في كتابـه «خلفيّـات التكويـن القصـصي في ليبيـا»، وهو- أيضـاً- رائد في مجـال الصحافـة، فعـلاوةً على تأسيسـه لـ«صـوت المربّي»، اسـهم في إنشـاء مجلّـة «هنـا طرابلـس الغـرب» الحكوميـة، وفي تحريرهـا، وهـي التي نـشر بهـا روايته «اعترافـات إنسـان»، كما نشر بهـا أعمالاً أخـرى، مـن بينها أعمـال أدبيّـة تنتمي إلى فـنّ القصّة، لـم يجمعها في كتـب- ربّما- لعـدم رضائه الكامـل عنها، مثـل «الحيـاة صراع»، كما أن هنـاك، في سـيرته المعتمـدة، ذكـراً لروايـات لم تنشر في كتـب، مثل: «خـضراء الدمـن»، و«الحـبّ الأوَّل»، و«تغـيَّرت الحياة».

هذه الرواية التي تتحدَّث عنها المراجع المعتمدة للأدب الليبي، باعتبارها الرواية الأولى التي نُشِرت، وصدرت في كتاب، كانت قد نُشِرت، على حلقات، في مجلّة «هنا طرابلس الغرب»، عددها (12) حلقة، بدءاً من شهر أغسطس عام 1959، إلى شهر مايو 1961، قبل أن تصدر في كتاب عن دار الفرجاني، عام 1961 .وكان الأستاذ سيالة رائداً في مجال التحوُّل الاجتماعي، إلى حَدّ أن أُطلق عليه اسم قاسم أمين ليبيا، لأنه تبنّى قضية المرأة، مطالباً بتحرُّرها والدفاع عن حقِّها في السفور، وحقِّها في التعليم، وحقِّها في العمل، وتحمَّلَ أذى المتزمِّتين الذين كانوا يهاجمونه من فوق منابر المساجد، أي تلك التي يسيطر عليها أهل النظرة المنغلقة، وصَمَد، وكافح، وجمع تلك المقالات التي تدافع عن قضية المرأة، في كتاب شهير شَكَّلَ علامة في مسيرة التحوُّل الاجتماعي، هو كتاب «نحو غد مشرق»، الصادر عن مكتبة الفرجاني، عام 1958. أمّا دوره الريادي الرابع، فقد كان في مجال الأنشطة الثّقافيّة، باعتباره صاحب حضور في هذا المجال، ومؤسِّساً لأهمّ جمعية ثقافيّة عرفتها العاصمة الليبية طرابلس، في عقدَي الخمسينيّات والستينيّات، وهي «جمعية الفكر الليبية»، التي ظلَّ، لفترة طويلة، أمينها العامّ، ومنظِّم موسم محاضراتها عندما استضافت مفكِّرين وشعراء وعلماء، عرباً وأجانب، مثل المستشرق الفرنسي بلاشير، والشاعر اللبناني سعيد عقل، والمفكِّر الجزائري مالك بن نبي، والمؤرِّخ التونسي عثمان الكعاك، وقد أسعدني الحظّ بأن أكون حاضراً محاضرات هؤلاء الأعلام، كما أسعدني بأن أتعرَّف إلى الرائد الأدبي الكبير محمد فريد سيالة، عندما ساهمت، في مرحلة الصبا، في الكتابة للصحيفة التي كان يدير تحريرها، وهي صحيفة «الطليعة»، وكنت أجد منه تشجيعاً وترحيباً، وأجلس أمامه وهو يمسك القلم، ليقوم بتصحيح ما وقعت فيه من أخطاء في

النحو، وتقويم ما شاب العبارات من ارتباك، وكان يقول، لي ولمن تَصادَف وجوده من شباب المحرِّرين المبتدئين، بأن اللّغة العربيّة هي أداة الكاتب وإتقان قواعدها شرط، لا يتحقَّق حضور الكاتب ولا جدارته إلّا به، وكان هو فقيه في اللّغة وقواعدها ونحوها، متبحِّر في آدابها وفنونها، كما كان يملك لغة ثانية، هي اللّغة الإيطالية التي صارت له بمثابة اللّغة الأمّ، ولم تكن طبيعته المتمرِّدة الثائرة تقبل بالعمل في ظلّ ذلك النظام الانقلابي العسكري الذي جاء بعد النظام الملكي، أو الانسجام معه، فأعرض عنه، وأبى الاحتكاك به، وكنت أتَّصل به، للمشاركة في بعض الأنشطة الثّقافيّة، كما فعلت مع زملاء من أبناء مرحلته، مثل الأستاذ خليفة التليسي، الذي استجاب للتعاون، واستعاد مكانته كقائد أدبي ثقافي، ورفض الأستاذ سيالة رفضاً قاطعاً، وآثر الصمت لمدّة شارفت على أربعة عقود، إلى أن رحل عن عالم الأحياء.

من طرائف ما حدث لي معه، أنه في، أثناء عمله مديراً لتحرير صحيفة «الطليعة»، التي كنت أكتب لها بعض الخواطر، وكان يستبقيني- أحياناً- ليأخذني معه في سيارته بعد الفراغ من عمله، لحضور ندوة أو المشاركة في مأدبة، وجدته يأخذني، ذات مرّة، إلى سوق شعبي هو سوق الثلاثاء، ثم يأتي إلى ركن في السوق، عبارة عن حانوت صغير من الصفيح، يباع فيه الخضار والفاكهة، ويخلع سترته الأنيقة، ويرتدي عفريتة زرقاء، فوق بقيّة ملابسه، وينخرط، مع عامل هناك، في إنزال البضائع من عربة يجرّها صاحبها، وعرفت أنه شريك في مُلكية ذلك الحانوت، وأنه يذهب في أوقات فراغه للمناوبة مع شريكه، من أجل تحسين دخله ورفع المستوى المعيشي لأسرته، فقصّة حياته، كما هي قصّة أبناء جيله، قصّة كدح

وكفاح، والقيام بمسؤوليات تقتضيها الظروف المعيشية، بالإضافة إلى العمل الثّقافي، والاجتماعي اللذين كانا، في مجملهما، تطوُّعيَّيْن، لا يحصل من ورائهما على أيّ مقابل.

ونأتي إلى هذه الرواية الرائدة، التي لا وجود لنصّ روائي، في الأدب الليبي، سابق لصدورها ولا متزامن معها، رغم قول ضعيف بوجود عمل أدبيّ مجهول، لم يبرهن أحد على وجوده، ينتمي إلى جنس الرواية. و«اعترافات إنسان» رواية تنتمي انتماءً أصيلاً إلى هذا الشكل الأدبي، تحقَّق لها النضج والاكتمال، وليست مجرَّد إرهاصات أو بدايات شابَها القصور، إنما هي كتابة إبداعية تؤكّد حضور الأقلام الليبية في هذا المجال، تنتمي إلى لون من ألوان الرواية، كان سائداً في عقد الخمسينيات، هو اللون العاطفي الانفعالي الذي يُنسَب إلى المدرسة الرومانسية، له فرسان في ساحة الأدب العربي، أمثال إحسان عبدالقدوس، ويوسف السباعي، ومحمد عبدالحليم عبد الله، وأمين يوسف غراب، الذي ورد اسمه في متن الرواية، دليلاً على تأثُّر المؤلِّف بمثل هذا النوع.

وقد حملت الرواية، عند طباعتها عام 1961، توصيفاً هو «قصّة ليبية»، إلّا أن تلك الطبعة الأولى، كما يقول المؤلِّف، كانت زاخرة بالأخطاء المطبعية، إلى حَدّ أنه تَمَّ سحبها بعد أيّام من نزولها إلى السوق، وإعدام النسخ التي جُمِعت، ولم يعد الكاتب إلى نشرها، في طبعة ثانية، إلا قبل وفاته بعام واحد، أي عام 2007، عن دار «مداد» للطباعة والنشر في طرابلس، وكان قد كتب إهداءً استهلَّ به الرواية، يقول فيه: «إليها، إلى بطلتها، إلى كلّ امرأة، فريد». ويقول، في تقديمه للرواية، مسجِّلاً الهدف الذي كان يتوخّاه من قرّاء كتابتها، والقضية التي يدعو إليها عبر كتابته

لها، بأن الإنسان لا يشعر بوجوده إلا إذا أحسَّ بحرِّيَّته، وهو لن يحسّ بهذه الحرّيّة إلّا إذا مارسها، على أوسع نطاق.

وكان واضحاً، عبر كلّ سطر من سطور الرواية، أنه لم يستهدف من كتابتها إلّا تأكيد هذا المعنى تأكيداً عميقاً، والاحتفاء بفعل الحرّيّة، والتحريض على ممارسة هذه الحرّيّة. وإذا كانت كتابة الرواية، باعتبارها لوناً أدبياً جديداً، وباباً غير مطروق، من قبل، في البيئة الأدبيّة الليبية، يحمل معنى التحدّي لمعطيات هذه البيئة، التي هي بيئة غير مهيَّأة وغير مؤهَّلة، بما يسود فيها من تقاليد وأعراف بدوية، لإنبات هذا اللون الأدبي المرتبط، دائماً، بمجتمعات التمدين والتحضُّر، فإن محتوى الرواية ورسالتها يتضافران مع هذا المعنى، وتقول، بصوت شديد الوضوح، إنها جزء من معركة ضدّ تقاليد الانغلاق والتزمُّت وقمع العواطف وقهرها، تلك التي تظلم الإنسان وتمنعه من ممارسة حرِّيَّته، وأن يعيش إنسانيَّته، وهي قضايا تحيلنا إلى تيّار فكري وفلسفي، كان سائداً في أواخر الخمسينيات، وله امتدادات في الإنتاج الأدبي القادم من عواصم ثقافية عربيّة، مثل بيروت والقاهرة، هو التيّار الوجودي الذي يدعو إلى التحقُّق الوجداني والعاطفي، ويدعو إلى التمرُّد على القوالب السائدة، في التفكير والسلوك، التي تمنع الإنسان من المحافظة على جوهره الإنساني وطمس شخصيَّته ومشاعره وتطلُّعاته.

تضعنا رواية «اعترافات إنسان»، مباشرةً، وسط هذا الصراع الوجودي بين الفرد وسطوة المجتمع، ونلتقي بالسارد للحدث الروائي، الدكتور فريد، وأزماته ومعاناته، يرويها بضمير المتكلِّم بكلّ ما يحمله، من بوح وحميمية، طبيبٌ ناجح، لكنه ليس سعيداً بنجاحه، فقد تحوَّل النجاح

وازدحام عيادته بالزبائن إلى عبء عليه، ربَّما لأنه جعل عيادته جزءاً من مقرّ سكناه، فهو أعزب يعيش بمفرده، لا رفيق له إلّا امراة متقدِّمة في السنّ تخدمه، اسمها زينب، وتشفق عليه لأنه وصل سنّ الأربعين ولم يتزوَّج، وهو يريد أن يتزوَّج، لكنه ليس راضياً ولا موافقاً على الزواج وفق التقاليد المجحفة التي يفرضها المجتمع، التي تمنع الزوج أن يرى المراة التي يريد أن يتزوَّجها، وتمنع المرأة من أن تعرف زوج المستقبل؛ ولهذا فهو يعاني من شعور بالخواء والفراغ، إلّا أن طرابلس ذات التنوُّع الإثني والتنوُّع الثّقافي، لا تتركه يعاني طويلاً، لأنها تتيح له أن يتعرَّف بامرأة إيطالية اسمها ماريا، تسكن قريباً من بيته، ينشئ علاقة حبّ معها، وتلاقيه من وراء ظهر زوجها، غير أنها علاقة عابرة طارئة، تنتهي بعد فترة قصيرة بسبب رجوع العائلة إلى إيطاليا، فيعود إليه إحساسه بالفراغ والخواء، حتى يظهر في عيادته مريض يعاني من تعب في الصدر، اسمه سليم عبد الملك، توثَّقت علاقته به حتى صار أقرب الناس اليه، رفيقاً ونديماً في أوقات السهر، فننتقل معه إلى قصّة داخل القصّة، هي قصّة هذا الرجل ابن العائلة الطرابلسية الموسرة، الذي يعمل في وظيفة حكومية، ويكتب، في مرحلة من مراحل علاقته بالدكتور فريد، مذكِّراته التي تعطي لهذه الرواية اسمها، إذ إن هذا الصديق سمّى مذكِّراته «اعترافات إنسان»، التي تجعل بطل الرواية الأصلي، الدكتور فريد، يتخلّى عن البطولة، ليصبح السارد لأحداث تحصل لصديقه، من موقف التعاطف، بل المشاركة، أحياناً، في صنع الاحداث والدفع بها في الوجهة التي تخدم صديقه، وتنفعه. وكان سليم قد رفض، في البداية، أن يعطي هذه الاعترافات إلى صاحبه، إلّا أن عارضاً مرضياً ألَمَّ به، جعله في خشية على حياته، واضطرّه لإخراج الاعترافات والدفع بها الي الدكتور فريد،

يأتمنه عليها، ويشترط عليه ألّا يقرأها إلّا بعد موته، إلّا أنه يشفى من مرضه، وتبقى المذكِّرات في حوزة صديقه الذي يتحرَّق فضولاً لقراءتها، ليقينه بأنها سوف تلقى ضوءاً يعينه على إنقاذ سليم من معاناته وعذاباته.

في أثناء إجازة، قضاها في باريس، تحدَّث، عن هذه المذكِّرات، إلى صديقته الفرنسية المسمّاة جانيت. واستجابة لإلحاحها، باشر بقراءة طرف منها على هذه الصديقة، يتحدَّث فيها سليم عن محنته، يدور الصراع حول إشكالية التناقض والتعارض بين قيم الكتلة البشرية المسمّاة مجتمعاً، والفرد في نزوعه إلى التحقُّق والانطلاق والحرّيّة والاستجابة إلى حاجات قلبه ووجدانه، بوصفه فرداً وإنساناً، وهو، هنا، مجتمع مدينة طرابلس، في تلك الحقبة التي اكتست فيها التقاليد طابعاً شديد الشراسة والقسوة، بسبب عنف التقاليد البدوية والعشائرية وقوَّتها، التي تحكم الحياة في المدن، أيضاً، بتزمُّتها وانغلاقها وافتراسها لخصوصية الفرد، وطمسها لشخصيّته.

يحكي سليم، في اعترافاته، كيف استجاب للتقاليد، وخطب فتاة اسمها مريم، بطريقة تقليدية، اعتماداً على ما سمعه حول جمالها ومستواها الثّقافي، دون أن يراها أو يلتقي بها، ويكتشف، بعد الزواج، أنها امرأة تنمّطت داخل قوالب المجتمع إلى حَدّ اذابت شخصيَّتها، وطمست روحها، وقضت على تفردها وخصائص ذاتها وتميُّزها؛ ما دفعه إلى أن يقع في حبّ فتاة اسمها فوزية، وافدة من بلد عربي أكثر تحرُّراً، هو لبنان، ليقيم علاقة حبّ معها على حساب أسرته، زوجةً وأولاداً. يعاني سليم من صراع مرعب بين واجباته، زوجاً وأباً»، وقلبه الذي شرد وراء هذه المرأة الفاتنة

التي يجد فيه الإشباع لعواطفه وأفكاره وعقله وجسده.

«اعترافات إنسان» رواية جميلة، مكتوبة بأسلوب أنيق ولغة مشرقة وضّاءة جذّابة، وفيّة لأطروحة الحرّيّة الفردية التي كُتِبت دفاعاً عنها، بصياغة فنّيّة متقنة، شابتها بعض الهنات التي تتَّصل بإلحاح على الموضوع إلى حَدّ التكرار، والحديث عنه بطريقة مسرفة، أحياناً، في عاطفيَّتها، ولها العذر في ذلك، لأنها رواية تنتمي إلى الأدب الرومانسي في شاعريَّته ورقَّته وشفافيَّته، دون أن تكون بعيدة عن طين الواقع وتعقيداته وأوحاله.

إنها قصّة الفرد، إنساناً ووجداناً، في مواجهة المجتمع، كتلةً وقطيعاً، وجداراً صلداً جامداً كأسوار السجن، كتبها الأديب الرائد محمد فريد سيالة، بانفعال وصدق وأمانة ونزاهة، صوناً لإنسانية الإنسان وشرف انتمائه لقيَم العصر، ومرافعة أصيلة ضدّ كلّ القوى التي تريد مسخ عواطف هذا الإنسان، وتشويه ذاتيَّته، وطمس تميُّزه وفرادته وجوهره.

اعترافات
إنسان

كان الفصل شتاءً... والجوّ بارداً، شديد البرودة؛ ما سبَّب انتشار كثير من إصابات الناس بشتّى أنواع الأمراض التي تسبِّبها مثل هذه الظروف، فجعل عيادتي مكتظّة دائماً بالناس وكأنها قد قُلبت إلى خليّة نحل، لا تتوقَّف فيها الحركة، ولا تهدأ، ولا ينقطع الطنين، ولا يكفّ... حركة مستمرّة دائمة... مريض داخل، ومريض خارج، وآخر جاء يسأل أو يستشير... حركة دائمة مستمرّة، من أوّل ساعات النهار إلى أوَّل ساعات الليل... الازدحام لا ينقطع، سواء أكنت موجوداً أم غير موجود؛ فالذين ينتظرون لا يعرفون، أو لا يشاؤون أن يعرفوا معنى الكتابة التي تحملها تلك اللوحة النحاسية الصفراء اللامعة التي تقول، في صراحة ووضوح: «مواعيد العمل من الساعة 11 إلى 13، ومن الساعة 16 إلى 18». لكن، ماذا يفيد قول هذه اللوحة الخرساء؟ إن الزبائن... المرضى لا يعرفون المواعيد، ولا يتقيَّدون بالساعات، والمصابون بالأمراض لا يصدِّقون (عن عمد) ما كتب على هذه اللوحة الصامتة... فهم يعتقدون، دائماً، أن مواعيدي غير محدَّدة، وغير مضبوطة، ولا صلة لها، أبداً، بما كُتِب على هذه اللافتة اللعينة، رغم أنني لا أذكر يوماً واحداً، منذ تخرجي، ومنذ أن فتحت هذه العيادة.. لا أذكر يوماً واحداً جئت فيه غير أيّام المواعيد المحدَّدة.

الازدحام مستمرّ، وسَيْل المرضى لا ينقطع، وهم يعرفون أنني (أعزب)، لا زوجة لي ولا أبناء.. أسكن هذه الشقّة التي تقع في الطابع الثالث من إحدى عمارات شارع الاستقلال، والتي اتَّخذت منها قسماً لعيادة المرضى، و- ربّما- هذا هو ما ساعدهم على أن يقتحموا عليَّ الشقّة، لا في ساعات راحتي، فحسب، بل حتى في ساعات نومي، أيضاً.

كثيراً ما كنت أتساءل بيني وبين نفسي، عن الأسباب التي جعلت عيادتي مزدحمة أبداً، طيلة ساعات النهار، وبعضاً من ساعات الليل، حتى أن هذا الازدحام لم يترك لي قليلاً من الوقت أستريح فيه، وأروّح عن نفسي المكدودة المتعبة المحتاجة إلى بعض من الراحة والاستجمام.

كثيراً ما كنت أتساءل: ما سبب ذلك؟... ما مبعثه؟... أهو انخفاض تسعيرة الفحص، أم الاسم الطيِّب الذي حصلت عليه، أم تراه لأنني خصَّصت يوماً في الأسبوع، غير معلوم ولا محدَّد، أفحص فيه المرضى، أيّ مريض، بالمجّان، ودون مقابل؟

ربّما، يكون واحد من ذلك هو السبب، و- ربَّما- يكون كلّ ذلك معاً. من يدري!؟ فللناس فيما يعشقون مذاهب. المهمّ أن العيادة مزدحمة أبداً، لدرجة أنك لا تجد فيها مكاناً خالياً، يمكنك أن تقف فيه، في أيّة ساعة من ساعات النهار.

وكثرة الازدحام هذه كانت تسبِّب لي كثيراً من الضيق والضجر والملل.. كانت تصيبني بالعنت والتعب والإرهاق، لدرجة أنني أحسّ، في بعض الأحيان، بالاشمئزاز من هذه المهنة التي اخترتها بنفسي وبمحض إرادتي، ولم يفرضها عليَّ أحد من الناس.

إنني لازلت أذكر، جيِّداً، ذلك اليوم الذي حصلت فيه على التوجيهية، وجلس المرحوم والدي، يسألني عن أيّ الكلّيّات أفضِّل. وكان- رحمه الله- يودّ لو أنني أختار كلّيّة التجارة، حتى أتمكَّن بعد تخرُّجي، من استلام إدارة تجارته، لكنني رفضت رجاءه، في لين ولطف، عندما اخترت كلّيّة الطبّ؛ أملاً في أن أساعد عباد الله على التخلُّص من الأمراض التي تفتك بهم، يوماً بعد يوم، دون أن يجدوا من يعطف عليهم ويرحمهم من بني جنسهم ومواطنيهم. هكذا، دخلت كلّيّة الطبّ وتخرَّجت فيها، منذ عشرين سنة، وأنا أشعر بأنني أصبحت إنساناً آخر، في استطاعتي أن أقدم شيئاً للناس. كنت أحبّ هذه المهنة، وأرى فيها نوعاً من المشاركة الإنسانية، لكنني، اليوم، وبعد مرور كلّ هذه السنين، أصبحت أكرهها... أمقتها.. لا أطيقها بأيّ حال.

إنني إنسان... بشر، مثل غيري من الناس، في حاجة إلى الراحة والاستجمام، وفي حاجة إلى السكينة والهدوء، وفي حاجة إلى أن أرفِّه عن نفسي، بين الحين والحين.... إنني موجود... حَيّ، هكذا تقول سجلّات مصلحة النفوس، وأنا أريد أن أشعر، حقاً بوجودي... بحياتي... بكياني.

لكن، كيف يمكنني أن أحقّق شيئاً من كلّ هذا، وأنا أعيش وسط خليّة النحل هذه... وسط هذه الزحمة.... هذه الهياكل الآدمية التي يغصّ بها كلّ شبر من العيادة... هذا السيل الجارف من الناس الذي لا يُعرَف له أوّل، ولا يُعرَف له آخر؟؟

حتى يوم الجمعة الذي جُعِل للصلاة والراحة والاستجمام، أكاد لا أستريح فيه، فإذا لم أسارع، منذ ساعات الفجر الأولى، إلى السيارة والخروج إلى ضواحي المدينة، فأنا معرَّض، دائماً، للاستدعاء، بين لحظة وأخرى،

لفحص مريض في بيته.

وكم كانت الخالة (زينب) تقاسي من هذا الإرهاق والتعب! فقد كانت، هي الأخرى، تأخذ نصيبها منه، برغم أنها امرأة عجوز جاوزت سنّ الخمسين بأكثر من ستّ سنوات، وإن كانت هي تقول إنها لم تتجاوز الخامسة والأربعين، رغم أنها تذكر عام الوادي، بتفاصيل أحداثه.

كم كانت تقاسي الخالة أو الحاجّة زينب من هذا الإرهاق، منذ أن بدأت تقيم معي في هذه الشقّة، تعتني بتنظيفها، وتغسل الثياب، وتطهو الطعام!؛ فقد كانت المسكينة تضطرّ، دائماً، لإعادة الكنس والتنظيف، مرّات، ومرّات، في اليوم.

مللت هذه الحياة... كرهت هذه المهنة.. أصبحت أتمنّى لو أنني كنت إنساناً آخر... إنساناً بسيطاً، ولو طبيباً في نوع آخر من الأمراض غير أمراض الصدر وذات الرئة، التي اخترتها، أو حتى مجرَّد طبيب غير مشهور كلّ هذه الشهرة بين الناس... لو كنت كذلك لاسترحت قليلاً، ولَخَفَّ عني شيء من هذا التعب الذي أعانيه.

وحاولت... حاولت كثيراً أن أتغلَّب على هذا الملل، وهذا الضجر، دون جدوى.... ذهبت كلّ محاولاتي سدًى... لم تجدِ قتيلاً.... لم يكن شيء في الوجود يخفِّف عني ما أشعر به من ضيق واختناق، ويجعلني أحسّ بين وقت وآخر، بشيء من الراحة... باسترجاع كياني الآدميّ المفقود، قبل أن أتعرَّف إلى (سليم عبد الملك)، سوى وقفتي في النافذة المطلَّة على بيتها، مباشرةً.

كانت شقّتي تقع في الطابق الثالث من تلك العمارة الواقعة في تقاطع

شارع الاستقلال، وشارع (.....)، وكانت هي تسكن في الطابق الثالث- أيضاً- من العمارة المواجهة، ولم يكن يفصل بيني وبينها سوى شارع (.....). وهي امرأة إيطالية تسكن مع زوجها في تلك العمارة، وكنت كلَّما وقفت في النافذة، أراها تقف، دائماً، هناك، وكأنها كانت معي على موعد، وبحكم الجيرة التي بيننا، بدأنا نتبادل الابتسامات، رغم أنها كانت في سنّ الخامسة والعشرين، كما يظهر عليها، وكما تنبئ ملامح وجهها، وأنا في منتصف الحلقة الرابعة من عمري. وبعد الابتسامات، تبادلنا التحيّات، أيضاً، إلى أن كان يوم جاءت فيه إلى العيادة تحمل وحيدها الصغير، الذي أصيب، فجأةً، بأنفلونزا حادّة.

وفي العيادة، وقفت إلى جواري تتابع فحص ابنها، والدموع تنهمر من عينيها، والهلع والخوف متمثِّلان في نظراتها، فأشفقت عليها، وأجلستها إلى جواري أصف لها الدواء اللازم وكيفية تناوله، هنا، وأنا أنظر إلى عينيها، اكتشفت فيها أشياء كثيرة، لم أكن أعرفها فيها، اكتشفت أنها أجمل ممّا كنت أتصوَّر. كانت شقراء ذات شعر ذهبي لامع مسترسل على كتفيها، وعينين زرقاوين كمياه البحر الصافية الشفّافة، وبشرة بيضاء ناصعة ملساء، وقوام بديع الصنع متناسق الأجزاء، وكان في نظرتها شيء لم أنتبه إليه، ولم أفهمه... شيء غامض لا تملك حياله إلّا أن تستجيب لندائه وإغرائه، مهما كنت راسخاً في الورع والتصوُّف. يومها، تحادثنا أحاديث كثيرة مختلفة متنوِّعة، كان آخرها موعداً بيننا على اللقاء في شقَّتي. وتقابلنا ليلتها، وكانت بيننا أشياء، ثم تكرَّر هذا اللقاء، وتعدَّد مرّاتٍ متوالية متتابعة، تارةً في شقَّتي، وتارةً في شقَّتها، وطوراً في السيّارة، خارج المدينة.

وبدأت أحسّ بالراحة، وأشعر بالاستقرار. ويومها، علمت أن نرفزتي،

وشعوري بالتعب والإعياء، لم يكونا نتيجة كثيرة العمل ولا كثرة المتردِّدين على العيادة. أدركت أن سبب كلّ ذلك شيء آخر لم أكن أعرفه، ولم أكن أتصوُّره، إلى أن اكتشفته في علاقتي مع (ماريا)، فتمنَّيت لو استمرَّت تلك العلاقة لفترة أطول... تلك العلاقة التي كانت تمدّني، بعد كلّ لقاء، بقدر من تجدُّد النشاط، وبقدر من الحيوية، وبرغبة شديدة في الحياة. غير أن هذه العلاقة لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما انقطعت وانفصلت، وأُسدِل عليها ستار، بعد أن غادرت (ماريا) البلاد مع زوجها الذي أصبح غير مرغوب فيه. عندها، عدت أشعر بالملل، وأحسّ بالإرهاق، وأبحث عمّا يخفِّف من تعبي، ويجدِّد نشاطي.

عدت أحسّ بكراهية كبيرة للمهنة التي اخترتها بنفسي... أخذت أبحث، بشتّى الطرق، عن وسيلة تزيح عن كاهلي بعضاً من التعب، وضاعت كلّ محاولاتي، مرّةً أخرى، أدراج الرياح، فشعرت بخيبة أمل وبتمزُّق في كياني الداخلي كلِّه، إلى أن تعرَّفت إلى (سليم عبد الملك)، منذ ثلاث سنوات، عندما أصيب بذات الرئة، ودُعِيت لفحصه ومعالجته. وبعد علاج طويل مرهق، أفاده العلاج، وشُفِي من مرضه، تماماً، بعد ستّة أشهر فقط. بعدها توطَّدت بيننا صداقة أنستني كلّ ألوان العذاب الذي كنت أحسّه، وأتعذَّب به... صداقة سليم أعادت لي شيئاً من حيويَّتي وحبي لمهنتي. صداقة سليم أنستني كثيراً ممّا كنت أحسّه من عناء وضجر وتعب.

كانت صداقتي مع سليم صداقة صادقة، أخذت تنمو، مع الأيّام، بسرعة عجيبة مذهلة، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى أنني اكتشفت في سليم أنموذجاً من الخلق، كنت أبحث عنه بين الناس؛ فقد لمست فيه، وهو الشابّ الذي لم يجاوز سنّ الثلاثين، إنساناً مجرِّباً محنَّكاً، عركته الأيّام، وحنَّكَته التجارب، صارع الأحداث وصارعته، فتعلَّم من هذا الصراع الكثير، فدفعني كلّ ذلك

إلى محاولة تأصيل الصداقة التي بيننا، إلى أن أصبحت أرى فيه، ليس مجرَّد صديق، بل أخاً وزميلاً. ومن يومها، لم يعد بيننا نحن- الاثنين- شيء اسمه (أسرار خاصّة): بدأ يصارحني بكلّ شيء في حياته، وبدأت أصارحه بكلّ شيء في حياتي. كشف كلّ منا نفسه للآخر، فأزحنا الفواصل التي تضعها التقاليد المجتمعية بين الأفراد. شيء واحد، لم أعرفه في حياة سليم، فأخذت معرفته تحيِّرني وتعذِّبني، لكنها حيرة وعذاب من نوع لذيذ. ومبعث لذّته أنك تحاول اكتشاف شيء جديد، شيء لم يكتشفه غيرك، فتشعر بلذّة البحث والاكتشاف، في صراعك مع الحيرة والعذاب.

كان شرود سليم، في بعض الأحيان، وصمته، ونظرته إلى لا شيء، هو ما يحيِّرني، هو ما أحاول اكتشافه، اصطحبته معي في جولات خارج المدينة، أكثر من مرّة، ودعوته إلى زيارتي في العيادة مرّات، ودعاني إلى زيارة منزله مراراً. كانت حجّته، في دعوتي إلى زيارة منزله وتناول الغداء أو العشاء معه، هي أنني أعزب، وليست هناك أيّة التزامات تربطني بأحد، ثم أنني في حاجة إلى أكل ما لا يستطيع الرجال طهوه. أخذنا نقضي سهراتنا معاً، نحن- الاثنين- لا ثالث معنا، إذا كنّا في شقّتي، وتكون زوجته ثالثتنا إذا كنّا في شقَّته. كنت ألبّي دعواته غير المتكلَّفة، وكان يلبّي دعواتي غير المتكلَّفة، أيضاً.

كثير من سهراتنا كنّا نقضيها في شقَّتي، نلعب الورق أو الشطرنج، وكان سليم، في مثل هذه الليالي، يشرب... ويشرب كثيراً جدّاً، لكنه، رغم كثرة شربه، لم يكن ذلك، أبداً، ليؤثِّر فيه، ويخرجه من صمته، ويعيده من شروده، إن لم يزده كلّ ذلك إلّا صمتاً وشروداً. هذا الصمت، والشرود، والنظر البعيد إلى لاشيء... هذه الأمور كانت تقلقني وتحيِّرني، وتثيرني بعض الأحيان، لكنها- في الوقت نفسه- كانت تزيد من صداقتنا، وتقوّي

من ترابطنا، وتزيد متانة تعارفنا... فالحقيقة أن سليماً هذا كان يتميَّز، عمَّن في مثل سنّه، بهذا الصمت والشرود والنظر إلى لا شيء... تلك النظرة المستعطفة التي تبعث في نفسك كثيراً من الشفقة والحنان على صاحبها، فلا تملك إلّا أن تحبّه، وتصادقه، وتعطف عليه، لعَلّك تتمكَّن، من وراء كلّ هذا، أن تصل إلى أغوار نفسه وأعماق روحه، فتكتشف السرّ الرهيب الذي ينزوي وراء هذه النظرة الشاردة.

إنه يحلم دائماً... ينظر إلى... لا شيء، يبحث بعينيه، في أعماق ماضيه، عن أمر، ويسلِّط نظرات عينيه الواسعتين الكبيرتين على لا شيء، أيضاً. كان يُكثر من الشراب، وكنت أفرح بكثرة شربه، وأحصي الكؤوس التي تناولها بفرحة خبيثة، ظنّاً مني أن كثرة الشراب هذه تساعدني على معرفة سرِّه الخفيّ الذي يكمن في أعماق هذه النظرة الشَّرود، لكن الأمر بالعكس، فلم يزده الشرب إلّا صمتاً وشروداً، عكس أمثاله من الناس الذين يجعلهم الشرب يثرثرون ويتحدَّثون، إلى كلّ من هَبَّ ودَبَّ، بما يريدون وبما لا يريدون أن يعرفه الناس عنهم.

كانت هذه الحال التي تعتري سليماً تزيد من إلحاحي على معرفة سرّ شروده وصمته وانطوائه على نفسه. جعلتني هذه الحال، حال سليم المحزنة المؤسفة، أبحث، بجدّ، عن ماضيه، وأتعرَّف بالسؤال عن حياته الخاصّة، وفكَّرت في نفسي: ربَّما يكون سبب ذلك عقدة من زواجه، مثلاً!، فسألت بعض أقاربه ومعارفه القدامى عن كيفية زواجه، فعلمت أنه تزوَّج زوجته الحاليّة ذات الجمال المقبول الهادئ، من أسرة محترمة، ووسط متعلّم، وأن له، من هذه الزوجة، ولدَيْن ذكَرَيْن، اثنَيْن، وأن هناك تقديراً واحتراماً متبادلَيْن بينهما، ولم تفدني هذه المعلومات في شيء، فعدت أبحث وأستقصي، مرّةً أخرى، عمّا يشغله، وكيف يعيش حياته

الخاصّة، وعن سمعته ومكانته بين الناس، وعن الذي كان في ماضيه، وماذا يوجد في حاضره!.

وجاءتني المعلومات التي كنت أريدها: إنه موظَّف بالدرجة الخامسة، ويعيش مع زوجته وولديه في منزل يملكه، وَفَّر ثمنه من راتبه المحدود، وأنهم يقيمون وحدهم في هذا المنزل، بعد أن توفِّي والده، بعد زواجه بأشهر قليلة، فلحق بوالدته التي توفِّيت منذ سنوات، وأنه موظَّف مشكور محبوب مخلص في عمله، وأن ماضيه نظيف، لم يحدث، أبداً، أن سُجِّل فيه ما يشينه.

كلّ هذه الأمور علمتها عن سليم، لكنها كلّها لم تُفدني في شيء، و لم تبلغني الغاية التي كنت أبحث عنها.. لم توصلني الهدف الذي أرومه وأبتغيه.

وعدت أفكر، من جديد، في طريقة أخرى. لقد أصبحت حالة سليم تقلقني وتحيرني لدرجة أنها أنستني كلّ ما عداها، وفكرت... فكرت كثيراً، إلى أن اهتديت إلى وسيلة، فسارعت إلى تنفيذها.

لابدّ أن يكون، في حياة سليم المنزلية، ما يتعبه، ويربكه، ويسبِّب له كلّ هذا الصمت والشرود والجمود. لقد قالوا إنه سعيد، في بيته، مع زوجته وأولاده، ولكنني لا أصدِّق مثل هذه الأقوال، فلقد علَّمَتني الحياة، والخمسَ والأربعون سنة التي عشتها، أن الرجل السعيد في حياته العامّة مع الناس، إنما هو ذلك السعيد في حياته الخاصّة مع زوجته، وفي منزله، والعكس في حالة الشقاء والبؤس؛ ذلك لأن الحياة المنزلية هي التي تعكس ظلالها على الحياة العامّة، فإذا صادفك رجل سعيد في الشارع، فتأكَّد أنه سعيد في البيت، أيضاً. أمّا إذا صادفك رجل شقيّ في الشارع فتأكَّد أنه شقيّ في

المنزل كذلك، ولا يمكن، أبداً، أن يكون السعيد، في البيت، شقيّاً في الشارع.

عندما تذكَّرت هذا بدأت أنفِّذ فكرتي الجديدة، بإرسال الحاجّة زينب، بين وقت وآخر، إلى منزل سليم، مرّةً للسؤال عنه إذا تأخَّر، ومرّةً لإعلامه عن شيء، أيّ شيء، ولو كان تافهاً، المهمّ أن تدخل الحاجّة زينب إلى منزل سليم. لم أخبر الحاجّة زينب عن قصدي من زياراتها المتكرِّرة إلى منزل سليم، إنّما تركتها هكذا، على طبيعتها العاديّة، طبيعة النساء، وأنا متأكِّد من أنها لابدّ أن تحمل لي، ذات يوم، أخباراً مهمّة من منزل سليم، فالمرأة، لا تستطيع عينها إلّا أن تراقب، ولا تستطيع أذنها إلّا أن تستمع، ولا يستطيع لسانها إلّا أن يتكلَّم.

وعادت الحاجّة زينب، ذات يوم، متأخّرة، من منزل سليم، أكثر ممّا تعوَّدت، وسألتها، حين دخلت، دون أن ألتفت إليها حتى لا تلاحظ اللهفة المرتسمة في نظراتي:

خيرك عطلتي، يا حاجّة... إن شاء الله خير؟؟

- خير، يا وليدي... لقيت مريم وحدها. راجلها مش موجود... قعدت نهدرز معاها شويّة.

وظننت أنني وضعت يدي على الخيط الذي كنت أبحث عنه، فالتفتّ إلى الحاجّة، بكلّ جسمي، وسألتها:

وكيف حال السيِّدة مريم، هي وولادها، إن شاء الله طيبين؟

وتنهدت المرأة العجوز قبل أن تجيب:

والله، مريم هذي مسكينة، يا وليدي.

وشعرت بفرحة تغمرني، لا لمسكنة مريم، بل لنجاح خطَّتي، فقلت:

وخيرها مريم يا حاجّة؟... مريضة؟

بعيد الشرّ عليها من المرض، بس هي مش مرتاحة في حياتها... مش مرتاحة في بيتها.

وتظاهرت بالاستغراب وأنا أسألها:

غريبة، يا حاجّة، كنت أظنها أسعد امرأة في الدنيا. سليم راجل طيِّب، وعاقل وطبعه هادئ، وزمان قلتِ، يا حاجّة، أنهم (سليم ومريم) يحبّوا بعضهم كثير، كيف اليوم تقولي مريم مش مرتاحة في بيتها؟.

– إيه، يا وليدي... ما تغرّكش المظاهر، يا دكتور... ما من مصايب في الدنيا واحنا نجهلها.

– كيف يا حاجّة؟... ما تخوفينيش من الزواج... أني كنت أتفكَّر نتزوَّج، ونفتح حوش زيّ الناس.

– أنِي ما قلتلكش ما تتزوّجش.

– لكن أنتِ خوَّفتيني... كلامك على مريم خوَّفني، والله يا حاجّة... احكي لي شنو لاحظتِ؟

لا، يا وليدي... أنت تعرف أني حاجّة بيت الله ثلاث مرّات، وإني عجوزة، ما زال لي على القبر شبرين.. أني حلفت لمريم ما نقولش حكايتها لحَدْ.

وخرجت الحاجّة زينب، فتركتني أعود إلى حيرتي، من جديد، وأفكّر في معنى كلّ هذا الذي سمعته منها... صحيح أنها لم تقل شيئاً يمكن

الاعتماد عليه، لكن ما لمَّحَت به كافٍ لأن يجعلني أتأكَّد من أن هناك شيئاً في حياة سليم المنزلية، لم أكتشفه بعد، وهذا الشيء هو ما أورثه كلّ هذا الشرود والصمت والجمود. كنت أظنّ أن لا شيء يخفِّف من هول همومه ومصائبه سوى الساعات التي يقضيها في بيته، بين زوجته وولديه.. زوجته التي قال لي هو نفسه، ذات يوم، أنها تحبّه كثيراً وتخلص له الحبّ، وأنه يحترمها ويقدّرها، ولم يشعر نحوها بكراهية أو نفور. صحيح أنه لم يقل أنه لا يزال يحبّها كما كان أيّام زمان، لكن هذا لا يغيِّر من الأمر شيئاً، ولا من نظرتي إليه وتقديري له؛ لأنني أدرك، جيِّداً، أن الحياة الزوجية سرعان ما يتبخَّر منها الحبّ، ليحلّ محلّه التقدير والاحترام المتبادلان بين كلّ زوجين.

وكنت أظنّه سعيداً في بيته، مع زوجته وولديه، وإذا بالحاجّة زينب، هذه العجوز الشمطاء، تغيِّر، من حيث لا تدري، نظرتي هذه، وتدفعني، مرغماً، لإعادة النظر فيما كوَّنته من آراء حول حياة سليم المنزلية؛ إذ كيف أفسِّر ما كنت أظنّه، وأجعله ينطبق على ما سمعته منها، الآن من الحاجّة زينب؟!!.

عجبت كثيراً ممّا أخبرتني به الحاجّة زينب لقد ذهبْتُ عدّة مرّات إلى منزل سليم، وكنت في كلّ مرّة ألمس بنفسي مدى الحبّ الذي تكنّه مريم لزوجها، ومدى التقدير والاحترام المتبادلَيْن بين الزوجَيْن. وأنا لا أذكر، مرّة واحدة، أنني لاحظت أو شعرت بما ينمّ عن كراهية أو نفور بينهما، فكيف أفسِّر ما تنقله لي الحاجّة زينب اليوم؟، وبمَ أعلِّله؟ كيف أصدِّق أن مريم، زوجة سليم، غير سعيدة؟ هل كان كلّ ما لاحظته وشاهدته مجرد شكليّات تفرضها الظروف والنظم الاجتماعية؟ هل يبلغ الحدّ، بهذه الظروف والنظم، أن تجبر الإنسان على التزوير في عواطفه؟ هل

لهذه النظم من القوّة ما تستطيع أن تُظهِر به الإنسان على غير حقيقته، حتى في إحساساته؟.

أنا لا أكاد أصدِّق ما أسمع... لا أكاد أصدِّق أن سليماً غير سعيد في حياته الزوجية... ولمَ لا يكون سعيداً؟ وكيف؟ وما سبب ذلك؟

هل فُرِضت عليه هذه الزوجة، التي يعايّشها ويعاشرها، فرضاً، دون رغبته؟ إنني أشكّ في ذلك، لأنني أعرف أنه من حرّيّة الرأي، بحيث لا يفرض عليه شيء رغم إرادته وإذا فُرِض أن مريم قد فُرِضت عليه فرضاً، وأُجبر على الزواج منها أجباراً، فلم لا يتخلَّص منها، بعد أن شعر بعدم ميله إليها ورغبته فيها؟ ألم يكن الطلاق هو الوسيلة الوحيدة التي تنجيهما من هذا العذاب الذي يعيشان فيه، إذا صحَّ أنهما غير سعيدين معاً؟.

واستحوذ هذا التفكير على كلّ حواسّي، لدرجة أنني لم أعد أشعر بأيّ شيء عداه.. نسيت كلّ شيء: الازدحام... خلّيّة النحل... الطنين الذي لا ينقطع... كثرة المرضى.... ماريا... النافذة لم يبقَ شيء أفكر فيه سوى البحث عن وسيلة تمكِّنني من اكتشاف هذا السرّ العميق في حياة سليم. وأخذت هذه الحال تؤرِّقني، وتنتزع النوم من عيني، وتحرمني الراحة.

وكنت، في مثل هذه الليالي الطويلة، أزيد من عدد الكؤوس التي أتناولها، أملاً في أن تساعدني على الوصول إلى حل... حَلّ لغز سليم، والوصول إلى جذور مشكلته. لكن، عبثاً كنت أحاول، فما إن أجرع الكأس الرابعة أو الخامسة حتى يتبخَّر سليم من دماغي، وتتبخّر معه مشكلة سليم، ولا أعود أفكِّر إلّا في شيء واحد: امرأة أقضي معها بقيّة ليلتي، وعندما أعود في الساعات الأولى من الفجر، يكون كلّ همّي منصبّاً في أخذ قليل من النوم

يعيد لي شيئاً من قواي المنهوكة، وإذا راودتني مشكلة سليم- وهي قليلاً ما تعاودني في مثل هذه الحال- أقول لنفسي: لماذا لا أدع التفكير فيها حتى الصباح؟ إنني متعب ولا أستطيع التفكير، الآن، ثم أنام، على أمل أن أفكِّر في إيجاد حَلّ لمشكلة سليم، في الصباح. لكن، متى كان الصباح من نصيبي، منذ أن فتحت هذه العيادة؟؟

ما إن أستيقظ، في الصباح، على صوت الحاجّة زينب، حتى يصلني صدى الضجيج الذي ينتظرني في الصالة، صالة الانتظار... ضجيج المرضى الذين استيقظوا مبكِّرين، وحضروا مبكِّرين أيضاً، فأنسى، في دوّامة تلك الضجّة اللعينة الصاخبة سليماً، ومشكلته، وزوجته، ولا أعود أفكِّر إلّا في الساعة التي أنتهي فيها من الفحص وكتابة الروشيتات، فحص ذلك الطابور المصطفّ الذي لا يُعرَف له أوَّل، ولا يُعرَف له آخر، فحص ذلك الجيش الذي ينتظرني، في غير ما رحمة ولا شفقة.

ثلاث سنوات انقضت، وأنا على هذه الحال. وكلّما حاولت التفكير في سليم انتابني ما ينسِّيني إيّاه ويصرفني عنه، ويبعده عن محيط تفكيري.

ثلاث سنوات، بطولها وعرضها، وأنا في دوّامة من أمري، لا أستريح ولا أستجمّ، إنما هو العمل كالسلسلة، يأخذ بعضه برقاب بعض. ثلاث سنوات، لم يحدث خلالها ما يستحقّ الاهتمام، إذا استثنيت تلك الحالة الطارئة التي انتابت سليماً، ذات يوم، وجعلته يبكي وينوح بين يديّ كما تبكي الثكلى وتنوح. وحاولت أن أعرف سبب بكائه، لكنه لم يصارحني بشيء.. كان يلفّ ويدور كلَّما وجهت إليه سؤالاً، لكنني كنت أجمع أجاباته القصيرة المقتضبة، حتى استطعت أن أدرك أن هناك شيئاً ما، كان سليم يتعلَّق ويتشبَّث به، أُخِذ منه رغم إرادته. لكن، ما هو هذا الشيء؟ ما

قيمته؟ هل هو امرأة؟ لا أعتقد، فهو متزوِّج. هل هو جاه؟ لا أظنّ، فسليم ليس في حاجة إلى جاه. هل هو مال؟ لا أعتقد، فسليم لا يملك كثيراً من المال... لم أدرك كنه ذلك. فلم أُقِم له كبير وزن.

ثلاث سنوات انقضت، وليس ثمّة ما يخفِّف عني التعب والعذاب، سوى التفكير، تارةً، في حال سليم، والتفكير، وتارة أخرى، في حال مرضاي، والتفكير بين هذا وذاك في امرأة تمنحني الدفء.

وفجأةً، وجدتني أعود- مرَّةً أخرى، رغم أنفي- إلى التفكير في حال سليم، وفي حلّ لمشكلة سليم، بعد أن لاحظت تدهوراً كبيراً في صحَّته، وزيادة في شروده، وصمته. بدأت أعمل جهدي لمعرفة هذا السرّ الغامض الذي يخفيه عني سليم، والذي خلق منه إنساناً صامتاً شروداً، وخلق من زوجته أمرأة معذَّبة (كما زعمت الحاجّة زينب)، امرأة شقيّة غير سعيدة في بيتها.

كنت أحسّ بالراحة والهدوء وتجدُّد النشاط، كلّما فكَّرت في مشكلة سليم، وأخذت في البحث عن سرّ شروده وصمته، واعتلال صحّته: لقد اصفرَّ وجهه، وشحب لونه، ونقص وزنه، وتطفَّلت شعيرات بيضاء لتزيِّن شعر رأسه وفودَيْه. وكنت أنسى تعب العمل وأنا أنصت إليه وهو يحادثني أحاديث القصيرة المقتضبة، و- ربَّما- يعود ذلك إلى خوفه من هفوات لسانه، ومن أن يفتضح أمره، إذا تحدَّث طويلاً، دون ضابط أو رابط.

وخلال هذه السنوات التي قضيناها معاً، أنا وسليم عبد الملك، عرفت عنه الكثير.. الكثير جدّاً.. أكثر ممّا يعرف هو عن نفسه. كنت أدرسه من جميع الوجوه: أدرسه في عمله.. في حياته الخاصّة.. في حياته العامّة.. في علاقته بالناس..، في صلاته بزملائه.. عرفت أنه من أسرة محترمة ذات يسر، انتقلت من الريف إلى المدينة بُعَيْد الحرب مباشرةً، واعتمد والده

على تجارة يديرها بنفسه، وأن سليماً هو الابن الذكر الوحيد لوالديه مع ست بنات تزوجن جميعهنّ، وقد حصل سليم على التوجيهية، ثم توظَّف سكرتيراً إدارياً بنظارة (..) وتزوَّج بعد وفاة أمّه، وما إن انقضت بضعة أشهر على زواجه حتى فارق والده الحياة، فتخلَّص سليم من بقيّة تجارة والده مفضِّلاً عليها الوظيف الحكومية.. وهو شابّ محبوب محترم من جميع الذين يعرفونه أو تربطهم به أواصر الصداقة، وكذلك هو محبوب حتى من الذين يسمعون عنه مجرَّد سماع، ليس غير..

وعند نقطة زواجه، توقفت قليلاً، أبحث عن الكيفية التي تَمَّ بها هذا الزواج: هل اختار زوجته بنفسه؟ هل اختارها له الغير؟ هل أُرغِم على الزواج منها إرغاماً؟؟.

وعلمت أنه لم يُرغَم، وأنه اختارها بنفسه، وفضَّلها على غيرها. لكن، ما الذي اختاره؟ لقد اختار الأسرة والعائلة والسمعة الحسنة، أمّا الفتاة نفسها فهو لم يخترها، لأنه لم يختلط بها، إنما اختاروها له، شأنه شأن غيره من شباب هذا المجتمع.. ولم أعلِّق كثيراً على هذه النقطة، وقلت في نفسي: «ليس شرطاً أساسياً أن يسبق الحبّ الزواج، فكثيراً ما يكون الحبّ نتيجة الزواج».. كلّ ذلك عرفته، وكلّ ذلك اطَّلعت عليه، إلّا سرّ صمت سليم وشروده الدائمَيْن.. وعندما عجزت عن الوصول إلى أيّة نتيجة حاولت محاولة أخرى.. اتَّجهت اتِّجاهاً آخر: بدأت أتتبَّع مطالعات سليم.. ماذا يقرأ؟ ما لون المطالعات التي يفضِّلها؟ وعلمت أنه يميل إلى كتب الأدب، وأنه مغرم بالقصص العاطفي.. قصص الحبّ يفضلها على غيرها، ويسهر على القصّة الواحدة إلى الساعات الأولى من الفجر، ولا يدعها قبل أن يفرغ منها، مهما طالت.

وسألته ذات يوم:

لماذا أنت تفضِّل هذا اللون من القصص، يا سليم؟

- لأنها تعجنبي.. لأنني أجد فيها تعزيتي وتسليتي.

- هل في حياتك ما تودّ أن تتعزّى به، وتتسلّى عنه؟

- في حياة كلّ إنسان شيء، يودّ أن يتسلّى عنه، وينساه.

ومن كلمة (تعزية) هذه، أمسكت بما ظننته موصلني إلى غايتي.. بما خُيِّل إليّ أنه أوَّل المأساة.. مفتاح السرّ، وفكرت أن- لابدّ- في حياة سليم العاطفية نقطة سوداء.. جانب مظلم.. من يدري؟ ربَّما أحبَّ أيّام زمان، وبادلته فتاته حبّاً بحبّ وغراماً بغرام، ثم هجرته، وفضّلت عليه سواه.. ونسي هو ذلك الحبّ القديم، أو خُيِّل إليه أنه نسيه، وبعد زواجه، عاد إليه الماضي.. ماضيه الغراميّ المشرق.. من يدري؟؟

لابدّ أن هناك ما يجثم ما أمامه؛ ذلك الماضي الوضّاء.. تلك الفترة المشعّة من حياته، فسبَّب له كلّ هذا الشرود والوجوم، وبعث في نفسه هذه الحالة من البؤس والشقاء.

وحاولت أن أبحث معه الموضوع الذي اقتنعت به كلّ الاقتناع، حتى صار محور تفكيري في حلّ مشكلة سليم.. ودعاني ذات يوم- كعادته- لتناول العشاء في بيته، وبعد العشاء (وزوجته لم تكن في البيت)، بدأنا سَمَرنا المعتاد، فلاحظت على سيمائه بعض التغيُّر.. كان يتحدَّث أكثر من ذي قبل، ويبتسم أكثر من عادته.. كان مرحاً، فعجبت، بيني وبين نفسي، وقلت: «لابدّ أن يكون في الأمر شيء»، وبحثت عن طريقة أجرّه بها إلى

الحديث، لأعرف سبب مرحه وسروره، فسألته، في عدم اكتراث:

أية قصّة قرأت هذه الأيّام، يا سليم؟

– مجموعة قصص «نساء الآخرين»، للأستاذ (أمين يوسف غراب).

– غريبة؟.. سبحان مبدِّل الأحوال.

– ماذا؟. ما الذي لاحظته؟، ولم وجَّهت إليَّ هذا السؤال؟؟

– لاشك في أن هذه المجموعة القصصيّة قد أثَّرت فيك كثيراً، فغيَّرت من طبعك... إنك أكثر مرحاً وبهجةً من ذي قبل.

– من قال هذا؟...

– أنا...

– أنت؟ إنك لست طبيباً نفسانياً، على كلّ حال... أؤكِّد لك أنك واهم...

– فيمَ وهمي؟

– لم يكن الفضل في التغيُّر الذي تتحدَّث عنه راجعاً إلى مجموعة القصص هذه، كما خُيِّل إليك...

– أنت توافقني أن تغيُّراً في حالتك قد حدث، وهذا هو ما يهمّني أنا... أمّا مبعث هذا التغيُّر فهو لا يهمُّني في كثير أو قليل.

– لكنه يهمّني أنا...

– فما هو، إذن؟؟

– لقد انتهيت البارحة من كتابة اعترافاتي.. لقد أسميتها «اعترافات إنسان».

– وهل لك اعترافات؟

– نعم... ليس هناك من ليس له اعترافات، يعترف بها بينه وبين نفسه، على الأقلّ.

– من أيّ نوع اعترافاتك هذه؟ إن للاعترافات أنواعاً كثيرة.

– سمِّها ما شئت. المهمّ أنها اعترافات، وكفى.

– لكن، أنا يهمّني أن أعرف من أيّ نوع هي.

لماذا؟... لماذا يهمّك أن تعرف نوع اعترافاتي الشخصية؟؟

– لأن حالتك تهمّني... لأنني أريد أن أعرف كلّ شيء عنك، حتى أصل إلى سبب ما خُيِّل إليَّ أنه شقاء تعانيه، وتعاسة تعيش فيها.

ولم يجب سليم، فخفت أن تفلت الفرصة مني، فعدت أقول:

هذا شيء عظيم.

– ما هو هذا الشيء العظيم؟

– أن يعترف الإنسان، ويسجِّل اعترافاته.

– حقّاً؟

– غير أن هذه الاعترافات لا تكون لها أيّة فائدة إذا لم يطَّلع عليها الناس...

ليس هناك أيّ فرق بين أن تبقى هذه الاعترافات في خزانة كتبك أو في خزانة عقلك. ليس المهمّ- يا سليم- أن يعترف الإنسان، بل المهمّ أن يدرك أن هناك من اطَّلع على سرِّه.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن يقرأ الناس اعترافاتك، وإلّا فوجودها وعدمها سيّان.

- ولماذا يقرأ الناس اعترافاتي؟ إنها تخصّني وحدي... إنها من أسراري الخاصّة.

- ليعرفوا أن الإنسان... أيّ إنسان، يمكنه أن يعترف بأعماله، مهما كانت سخيفة وغير لائقة... يمكنه أن يكشف لغيره عن جوانب الخير والشرّ في نفسه... وإذا اعترف الإنسان بشروره، فمعنى ذلك أنه تاب عن ارتكابها.

- ومن قال لك إنني تبت عن ارتكاب الشرّ، إذا جاز تسمية ما ارتكبته شرّاً؟

- إذا اعترف الإنسان بشروره، فذلك عنوان توبته.

- لا... أنت واهم... أؤكِّد لك أنك واهم حين يخيَّل إليك أنني قرَّرت التوبة عمّا أفعله، لأنني لا أرى فيما أفعله ما يستحقّ أن أتوب من أجله... كلّ ما في الأمر أنني بشر... إنسان، والإنسان، كلّ إنسان، عرضة لأن يتحكَّم فيه قلبه، ويقوده بحسب إرادته.

- لا أنكر أن يتحكّم قلب الإنسان بالإنسان، إنما كلّ ما أنكره ولا أقرّه هو أن يتغلَّب جانب الشرّ في نفوسنا، ويسيطر على جانب الخير فيها.

- الخير والشرّ... ما هو الخير؟ وما هو الشر؟... هل تستطيع أن تحدِّد لي كلّاً منهما؟

- الخير ما قصد به إفادة الغير، وعكسه هو الشرّ.

- هذا تحديد مائع مضطرب... تحديد سطحيّ... أريد لو تتعمَّق أكثر.

- لست فيلسوفاً، ولذا لا أستطيع أن أحدِّد بأكثر ممّا حددت. الخير والشرّ، في نظري، يتوقّفان، في تحديدهما- أوّلاً- على الشخص الذي يحاول التحديد، و- ثانياً- على المجتمع الذي يُحَدَّدان فيه.

- اسمع يا دكتور، الخير في نظري، هو ما قصد به الإنسان إفادة نفسه، دون الإساءة إلى غيره.

- هذه أنانية... أنانية أن تنظر إلى مصلحتك، دون أن تهتمّ بمصلحة الآخرين.

- الأنانية أن تقيم مصلحتك على أنقاض مصلحة الآخرين.

- كلّها واحدة.. كلّ عمل قُصِد به المنفعة الشخصية، ليس غير، أعتبره أنانية وحبّاً للذات.

- سَمِّها ما شئت... أنت حرّ في تعريفك وتحديدك، وأنا حرّ في تحديدي وتعريفي للأشياء.

-ألّا تزال مصمِّماً على عمل الخير لنفسك؟

- ومن ينكر عليَّ مثل هذا العمل؟

- ولو كان في ذلك إساءة للغير؟!

- من قال هذا، أو أشار إليّه؟.. إنني أعمل ما فيه خير نفسي، وليس من الضروري أن يكون في ذلك نفع لغيري.

- قد يكون، أو ينتج عن ذلك ضرر بالآخرين... ولو لم تقصد إليه.

-الخير والشرّ- يا دكتور- أمران اعتباريان، مختلفان باختلاف الدافع إليهما، والإنسان وحده هو الذي يحدِّد معنى الخير، ومعنى الشرّ.

- إن للمجتمع في ذلك دخلاً كبيراً... إن المجتمع هو الذي يقرِّر هذا المعنى، ويضع الحدود والفواصل بين الخير والشرّ، وليس الإنسان الفرد.

- وما هو المجتمع؟... وممَّن يتكوَّن؟... أليس مني ومنك ومن الآخرين؟ فلماذا أنا وأنت نضع حدوداً تحدّ من حرّياتنا الفردية؟

- إن الذين سبقونا وضعوا هذه الحدود.

- يجب ألّا نقيم كبير وزن لأحكام لم نضعها، ولم نفكِّر فيها، ولم يستشرنا فيها أحد يوم وضعها... علينا ألّا نفكِّر في ذلك، إذا أردنا أن نكون أحراراً... إذا أردنا أن نحسّ بوجودنا. (فالإنسان لا يشعر بوجوده إذا أحسَّ بحرِّيَّته)، وحرّيّة الإنسان متعارضة وأحكام المجتمع الجائرة.

- نحن مضطرّون- شئنا أم لم نشأ- للخضوع لهذه الأحكام، مهما بلغت من الجور والظلم.

- أنا لا أقرّها، ولا أؤمن بها، و-من ثَمَّ- لا أخضع لها، لأنني إنسان... فرد غير مقيَّد... إنسان حرّ في جميع أعمالي وتصرُّفاتي.

– أنت حرّ.. هذا صحيح، ولا يناقشك في ذلك أحد. لكن...

– لكن ماذا؟

– لكن حرّيتك محدودة بحدود حرّيّة الآخرين... حرّيّة الذين يعيشون معك في هذا المجتمع.

– وإذا لم يكن في أعمالي وتصرُّفاتي ما يلحق ضرراً بالآخرين؟

– ذلك ما لا يمنعك منه أحد.

– إذاً، أستطيع أن أعمل ما أريد داخل هذه الحدود.

– وماذا تريد أن تعمل؟ هناك اعتبارات مجتمعية، يجب علينا احترامها، رضينا أم أبينا.

– هنا نقطة الخلاف بيني وبينك.

كيف؟... لِمَ الخلاف؟؟

– أضرب لك مثلاً: لنفرض أنني أحبّ فتاة ما، رغم أنني متزوِّج ولي ولدان، فما حكم المجتمع في مثل هذا الحبّ؟

– إنه لا يقرّه، طبعاً.

– ولماذا لا يقرّه؟

لأن المجتمعات البشرية تواضعت على أن يعقب الزواج كلّ حبّ ينشأ بين اثنين، فهل أنت مستعدّ للزواج من فتاتك هذه؟

– لا.

– لماذا؟

– لأنني لا استطيع.

– ولماذا لا تستطيع؟ ما يمنعك من ذلك؟ ألست حرّاً تفعل ما تشاء؟؟

– أرجوك، لا تسألني... كفى.. قلت لك لا أستطيع.

قال سليم هذا الكلام، ثم عاد إلى الصمت والشرود، مرّة أخرى، وحاولت أن أنتزعه من شروده وصمته، وأن أعيده إلى حالة المرح والانشراح، فلم أوفَّق. وهنا، قمت عائداً إلى بيتي. وهناك، في بيتي... في شقّتي بدأت أفكِّر من جديد: ما هو هذا الحبّ الذي تكلَّم عنه سليم؟ ما نوعه؟ ما كنهه؟ أهو حبّ محرَّم، أم أنه حبّ مباح، وهو يحتاج إلى الشجاعة في الإعلان عنه؟

إن كلّ ما توصَّلت إليه، في الماضي، من استنتاجات، لم يكن سوى مجرَّد تخمين... مجرَّد تخيُّلات... ليس هناك ما يدعمها من واقع، أو ما يسندها من حقيقة... اعتقدت، بادئ ذي بدء، أن في حياة سليم حبّاً قديماً، أو ما يطلقون عليه (الحبّ الأول)، تراكم عليه تراب النسيان، وغاص إلى الأعماق السفلى، حتى لم يعد سليم يشعر أو يحسّ به، وفجأةً، يطفو على السطح، هذه الأيّام، ويعلن، في صراحة، عن وجوده، فيسبِّب لسليم كلّ هذا الشرود والصمت والكآبة...

اعتقدت ذلك، وإذا بالحقيقة تكذِّبه... وإذا بالواقع يسفِّهه... إن سليماً يحبّ الآن... وهل الحبّ عيب أو حرام؟. لا... أبداً، إن الحبّ شيء مباح... إنه الشيء الوحيد الذي يضيء لياليَنا، وينعش أيّامنا، ويملأ حياتنا، ويبعث

الدفء في قلوبنا... إن الحبّ هو الشيء الوحيد في هذه الحياة الذي يشعرنا بوجودنا، ويشعرنا بإنسانيتنا، ويجبِّب الحياة إلينا، غير أن سليماً يحبّ حبّاً يكاد يكون محرَّماً عليه، لماذا؟. أَلِأنه متزوِّج وله ولدان اثنان، وهو لا يستطيع أن يترك زوجته ويتزوَّج غيرها... هذه التي يحبّها؟؟ هل هناك ما يحول دونه ودون القيام بهذه العملية السهلة البسيطة، في نظر بعض الناس؟ وما هي هذه الموانع؟. هل هي موانع مادّيّة؟. وهل عدم توفُّر المادّة (الفلوس) هو ما يمنعه من تطليق زوجته والزواج بأخرى؟ وهل يمكن لحياة زوجية أن تثمر... أن تستمر إذا كان لا يربطها إلّا خيط رقيق سرعان ما ينقطع إذا تعرَّض للواقع، وإذا توفَّرت المادّة؟ وأيّة حياة زوجية هذه، إذا كان ما يربط أفرادها لا يتعدّى عن عدم توفر المادّيّات؟ إن حياة زوجية مثل هذه، لاشكّ في أن الطلاق أخفّ منها شقاءً، وأقلّ تعاسة.

ماذا يمنع سليماً، أو يحول دونه ودون تطليق زوجته، والزواج من غيرها؟ من هذه التي يحبّها؟. إن الدين الإسلامي يبيح له الزواج، ولو مئة مرّة، وغيره كثيرون تزوَّجوا، وطلَّقوا لغير ما سبب، أو لأسباب تافهة جدّاً لا معنى لها... فكيف؟ ولماذا هو لا يستطيع؟؟

هل يحبّ زوجته، لدرجة لا يستطيع الاستغناء عنها؟، وإذا كان يحب زوجته لهذه الدرجة، فكيف أَحَبَّ معها غيرها؟ هل يمكن للإنسان أن يحبّ اثنين في آن واحد. في وقت واحد؟... أنا لم أجرِّب هذا، لكنهم يقولون إن القلب لا يحبّ إلّا مرّة واحدة.. ولا يحبّ إلّا شخصاً واحداً... وإذا كان سليم لا يحب زوجته، فلماذا لا يتخلص منها... يطلِّقها ليستريح وتستريح هي- أيضاً- بدلاً من هذا الشقاء الذي يعيشان فيه؟؟

أسئلة كثيرة أخذت ترد إلى ذهني في ليلتي المطوَّلة تلك، التي لم أذق فيها طعماً للنوم والراحة. وعبثاً، حاولت أن أجد الجواب لأيٍّ منها... لقد كانت أسئلة أوجِّهها إلى نفسي، دون أن انتظر منها جواباً... وأخيراً، قلت إنه لابدّ أن يكون في حياة سليم سرّ آخر، لا زال يخفيه عني، ولم تساعده كبرياؤه على البوح لي به، ولابدّ أن يكون هذا السر شيئاً مقدَّساً لديه، فإذا أردت، فعلاً، أن أصل إلى نتيجة، لابدّ لي من كشف هذا السرّ... من رفع الستار الذي يخفي هذا السرّ، وما ذلك الستار سوى تلك الاعترافات التي قال إنه فرغ من كتابتها حديثاً، فواجبي، الآن، ينحصر في قراءة الاعترافات، مهما كلّف الثمن... إن السرّ يكمن وراءها... إنها مفتاح الصندوق المغلق... إنها الطريق نحو معرفة الحقيقة التي أتعبت نفسي في الجري وراءها، وأرهقت عقلي في سبيل إزاحة الستار عنها.

ومن يومها، بدأت أحاول جهدي للحصول على تلك الاعترافات وقراءتها، فقد تأكَّد عندي، بما لا يدع مجالاً للشكّ، أن أمراً ما تخفيه هذه الاعترافات. أن قصّة حبّ سليم وقصّة شقاء زوجة سليم، ليس هناك ما يزيل عنهما الستار ويعرِّضهما للضوء، سوى معرفة ما خَطَّه سليم في هذه الاعترافات.

وحاولت أن أحصل عليها... على اعترافات سليم، وأن أقرأها، ولكن محاولاتي كلّها ذهبت أدراج الرياح، ولم تأتِني بأية فائدة، على الإطلاق، فقد كان سليم أحرص من أن يمكِّنني من الاطِّلاع عليها، وكان حريصاً على هذه الاعترافات، لدرجة أنه كان يضعها تحت وسادته إذا نام، وينقلها معه إلى المكتب إذا ذهب إلى المكتب، ويحملها في محفظته بين المنزل والمكتب. وعندما فشلت محاولاتي ولم أتمكَّن من الوصول إلى غايتي، أسلمت أمري لله، وللأيّام، معتمداً على أن الأيّام وحدها كفيلة بمساعدتي في حلّ هذا الإشكال، لكنني، في قرارة نفسي، ورغم استسلامي هذا، كنت أحسّ بأن شيئاً ما في هذه الاعترافات يدعوني، في إلحاح، إلى اكتشافه.. إلى معرفته.

وجاءتني الأيّام بالحَلّ... الحلّ الذي لم أنتظره، فقد سقط سليم، ذات يوم، مريضاً، وكان مرضه على درجة كبيرة من الخطورة، واستُدعيت لعيادته. وهناك، فوجئت بأن الحالة تستدعي بقائي إلى جواره، وتركت كلّ شيء، ونسيت كلّ شيء: مرضايَ وعيادتي وسهراتي ومغامراتي، ملازماً سرير سليم كثيراً من ساعات النهار، وكلّ ساعات الليل، لا أفارقه إلّا في الحالات التي لا تتحمَّل التأجيل... واشتدّت عليه الحمّى ذات ليلة، وارتفعت درجة حرارته إلى ما فوق الأربعين، وشعرت بخطر الموقف، فاستدعيت له طبيباً آخر. وبعد الفحص، طمأنني على نتيجة الدواء الذي وصفه لي، وما إن خرج الزميل حتى أخذ سليم يهذي بكلام، لم أستطع تمييزه... حاولت أن أفهمه فلم أتمكَّن؛ كان مجرّد كلمات متقطِّعة تتدفَّق من فمه، لا تربط بينها رابطة ما... كلمة من هنا، وكلمة من هنا، كلّ ما تمكَّنت من جمعه، من هذه الكلمات المتقطِّعة المتناثرة، هو قوله: «.. سامحيني، يا مريم.. الوداع يا عبد الكريم.. الوداع يا محمود (عبد الكريم ومحمود هما ولداه).

أنا راحل.. سنلتقي هناك يا...» وحاولت أن أفهم هذا الاسم الذي يهتف به، وبعده باللقاء فلم أتمكَّن أيضاً.

ظننت أن هذا الاسم لابدّ أن يكون اسم تلك التي قال إنه يحبّها، ولا يستطيع أن يتزوَّجها.. ترى، من تكون؟ أهي قريبته؟. أهي من جنسه، أم تراها إحدى الأجنبيات، تعرَّف إليها، كما تعرَّفت أنا إلى ماريا ذات يوم؟

ورحت في دوّامة من أمر هذه، التي يعدها باللقاء هناك.. في السماء، إلى أن كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف صباحاً، دون أن أشعر بمرور الوقت، عندما أخذت درجة حرارته في الهبوط وحالته في التحسُّن. حمدت الله كثيراً حين فتح عينيه ووجدني إلى جواره، فطلب مني أن أناوله كأساً من الماء، ثم سألني قائلاً:

كم الساعة الآن؟.

- الخامسة والنصف، صباحاً

- أين كنت؟ ومتى جئت؟

- هذا مكاني منذ أوَّل الليل.. إلى جوار سريرك.

- أنك لم تنم، إذن؟

- أبداً... كانت حالتك في خطر... ولكن، الحمد لله، لقد زال الآن.

- من قال إن الخطر قد زال؟

- الدكتور الذي زارك أوَّل الليل.

– اسمع، يا دكتور، أنا متأكّد أن حياتي قد شارفت النهاية... أعرف أن ساعة خلاصي قد حانت... أعرف...

– دعك من هذه الوساوس... لقد قال الد....

لا تصدِّق ما يقوله الأطبّاء، رغم أنك واحد منهم.. الإنسان طبيب نفسه، أشعر أنني على أبواب النهاية التي يقولون عنها، وليس لي ما أفكِّر فيه سوى محمود وعبد الكريم فكن لهما الأب المحبّ الحنون، بعدي.

وصمت سليم قليلاً، ثم مَدّ يده تحت وسادته، فأخرج كرّاساً في حجم الكراسات المدرسية، ثم ناولني إيّاه قائلاً:

هذه هي اعترافاتي التي قلت لك إنني فرغت من كتابتها منذ أيّام قلائل، اقرأها متى شئت، أنا أعرف أنك متلهِّف عليها، وافعل بها بعدي ما تشاء: مزِّقها.. احرقها.. احتفظ بها للذكرى.. انشرها على الناس، لا يهمّني ما تفعله بها بعدي، المهمّ أن تقرأها ليستريح ضميرك، وحتى تقف على الحقيقة التي حيَّرتك كثيراً، وأتعبتك كثيراً، وأجهدت نفسك وراء الوصول إليها.

– من قال لك هذا؟ من قال لك إنني مهتمّ بمعرفة أسرارك الخاصّة، إلى هذا الحَدّ؟؟.

– أنا أعرف كلّ شيء.. قل لي: أين مريم؟

– ذهبت إلى فراشها منذ قليل، حين أحسَّت بتحسُّن حالتك.

– مسكينة هذه المرأة، لقد كانت ضحيّة مثل غيرها من النساء كثيرات.. ليتها تسامحني.

- دعك من التشاؤم، يا رجل، وحاول إن تستردّ صحّتك أوّلاً، ثم كفِّر عن سيِّئاتك، إن كانت لك- فعلاً- سيِّئات.

وكانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً، عندما ودَّعت سليماً، وخرجت من بيته، وأنا مطمئنّ عليه بعض الاطمئنان، فذهبت إلى عيادتي أستقبل الطابور الذي ينتظرني، منذ ساعة أو أكثر. كنت طوال ذلك اليوم أحسّ بالعطش واللهفة إلى قراءة تلك الأسرار التي جئت أحملها من سليم.. تلك الأسرار التي أتعبتني وأجهدتني الشيء الكثير، وأسهرتني الليالي الطوال.. كنت أحسّ بلهفة لقراءة اعترافات سليم عبد الملك التي سمّاها «اعترافات إنسان»، لكن كثرة المرضى.. الازدحام.. طوابير الهياكل الآدمية التي يأخذ بعضها برقاب بعض، حال دوني ودون ما أريد. إلى أن كان المساء، عندما أغلقت العيادة وخلوت إلى نفسي، وسحبت ذلك الكرّاس المدرسي، وهممت بفتحه.. بل فتحته فعلاً، وبدأت أقرأ:

3 يناير

لست أدري لماذا لم...

وقبل أن أسترسل في القراءة، تكلّم ذلك الأخرس اللعين.. رنّ جرس التليفون ليقطع تسلسل أفكاري، وليحول دوني ودون متابعة القراءة.. وفكَّرت في ألّا أردّ.. ألّا أرفع السمّاعة، لكن الجرس لم يتوقَّف، والرنين لم ينقطع، فوجدتني مضطرّاً لتناول السمّاعة، وأنا ألعن (سنسفيل) التليفونات، هذه الآلات الخرساء التي تعودت إزعاجنا بين الحين والحين، ورغم ذلك، نحن لا نستطيع الاستغناء عنها بعد أن أدخلتها المدنيّة

الحديثة في حياتنا، فأضحت شيئاً ضرورياً لنا، كالماء والهواء، سواء.. ووضعت السمّاعة على أذني صائحاً في غضب:

- ألو..

وجاءني صوت نسائيّ يقول:

هل هذه هي عيادة الدكتور فريد؟

- نعم.. تفضّلي.. أيّة خدمة؟

وظننت أن مريضاً جديداً أصيب، فجأةً، بمرض ما، وخاف عليه ذووه، فلم ينتظروا حتى تشرق الشمس خوفاً من أن يغادر الحياة قبل أن يحين أجله ببعض ساعات، فأسرعوا يتَّصلون بي دون أن يفكِّروا في أوضاعي الخاصّة ومشاكلي الشخصية، ومن غير أن يقيموا أيّ وزن لحياتي ومتاعبي. وتمنَّيت، في تلك اللحظة، لو لم يكن هذا الجهاز الملعون.. هذه الآلة الخرساء،؛ إذن لما كان هناك من يزعجني في أوقات راحتي القليلة، التي كنت أسرقها سرقة، وأعتبرها غنيمة كلّما جادت عليَّ السماء بقليل منها.

تصوَّرت كلّ ذلك، ولم أتصوَّر، أبداً، أن يكون الخبر أشدّ من كلّ هذا قسوةً، وأكثر مرارة، فما لبث ذلك الصوت النسائي، الذي تتجلّى الكآبة في نبراته، أن عاد يقول:

- أنا مريم.. زوجة سليم، يا دكتور.

وشعرت كأن (دشّاً) بارداً قد صُبَّ على أمّ رأسي، فتلعثمت قبل أن أسألها:

– خير إن شاء الله.. ماذا هناك، يا سيِّدتي؟. كيف حال سليم؟؟

– حالته في خطر يا دكتور.. وهو يسأل عنك.. يريد أن يراك.. أرجوك أن تسرع بالحضور إليه.. أرجوك.

وغلَبَها البكاء، فلم تكمل حديثها.. تحجَّرت الكلمات في فمها، فرميت السماعة من يدي، وأسرعت أرتدي ملابسي بحركة آليّة، وأُسرع إلى منزل سليم، وفي اعتقادي أنه قد مات، أو أنه على وشك أن يموت، وكنت منفعلاً جدّاً، لدرجة أنني كدت أدوس أحد الصِّبْية، بالسيارة، في الطريق، لولا لطف الله.. وما إن بلغت المنزل، وضغطت على الجرس، حتى فتحت مريم وآثار دموع ساخنة ترتسم على وجهها، وأشارت بيدها بأن ألتزم الصمت، فدخلت حجرة سليم على أطراف أصابعي، وأنا أحسّ بأن هناك شيئاً ما ينتظرني.. شيئاً لا أعرفه.. مفاجأة من مفاجآت هذه الحياة التي ما فتئت تداعبنا بها بين الحين والحين، فتمدُّنا بكلّ جديد طريف.

وجلست على مقعد بجوار سرير سليم، أفحص نبضه، بينما جلست مريم على حافّة السرير الذي يرقد عليه زوجها في شبه إغفاءة، وبدأت المرأة تتكلَّم بصوت ضعيف محزون، فقالت:

بمجرَّد أن خرجت من هنا، يا دكتور، عاد إلى نومه، مرّةً أخرى، فشعرت بشيء من الاطمئنان لأن النوم ـ كما يقولون ـ دلالة الصحة، وطالت نومته تلك، فلم يستيقظ إلاّ حوالي السادسة مساءً، وبدأ يبحث عنك، ويسأل إلى أين ذهبت، ولماذا ذهبت. حاولت أن أعرف ماذا يريد منك فلم أستطع. كان يطلب، ويلحّ في طلب مقابلتك. دون أن يبدي لي الأسباب، ومن غير أن يفصح عمّا يوّد أن يقوله لك. كلّ ما استطعت أن أفهمه منه، هو أنه يريد أن يفضي إليك بسرٍّ ما.

وسكتت مريم، فأخذت أفكِّر في كنه هذا السرّ الذي يريد سليم أن يقوله لي... ما هو؟، ولماذا يتعجَّل الإفصاح عنه؟. لماذا لم ينتظر حتى نلتقي مرّةً أخرى؟، ألم أكن بجواره منذ ساعات قلائل، فما منعه من أن يبوح لي به، آنذاك؟ لابدّ أن الأمر جدّ خطير وإلّا لما ألحَّ كلّ هذا الإلحاح في طلبي.. والتفتّ إلى مريم أسألها:

لقد لاحظت في صوتك بعض الاضطراب، وأنت تخاطبيني في التليفون، فما سبب ذلك؟ هل زادت حالة سليم سوءاً، لا قَدَّر الله؟؟

- لا أبداً.. إلّا أنه قال...

- تكلَّمي، يا سيّدتي. أريد أن أعرف كلّ شيء. أنت تعلمين أن سليماً صديقي، ويهمّني جدّاً أن أطَّلع على كلّ شيء له مساس بالحالة التي يعانيها، و ـ ربَّما ـ كلامك يساعدني على ما أريد.

- عندما ألححت عليه ليخبرني بما يرغب أن يفصح لك عنه، أجاب بكلمات، لم ترتح لها نفسي.

- ماذا قال لك؟.. تكلَّمي.. لا تخجلي مني. يجب أن أعرف كلّ شيء بالتفصيل.

- صارحني بأنه...

- لماذا كلّ هذا الخجل؟ اعتبريني في مقام والدك، إذا كنت أنظر إلى سليم كأخ لي وصديق، فإنني أنظر إليك أنت وكأنك ابنتي، ويهمّني أن أراك مستريحة في حياتك مع زوجك.. ماذا قال لك سليم؟ هل قال إنه يحبّ امرأة أخرى؟

لم تتمالك المرأة نفسها، عندما سمعت هذه الكلمة مني، أقولها بكّل هذه الصراحة والبساطة، فأجهشت بالبكاء، وقامت تغادر الحجرة. وبقيت وحدي أنظر إلى الرجل الممدَّد على السرير، دون أن أفوه بكلمة ما، ومن غير أن يستقرّ فكري على ناحية أو نقطة، بالذات. ومَرّ ما يقرب من نصف ساعة بعد خروج مريم، ثم فتح سليم عينيه، ونظر حوله، كأنه يفِّتش عن شخص معيَّن، وما إن وقع بصره عليَّ أنا، حتى ابتسم ابتسامة صفراء باهتة، لا لون لها، ولا معنى، وطلب مني أن أساعده على الجلوس، فأجلسته دون أن يجرؤ أحدنا على بدء الحديث، وـ أخيراً ـ قلت:

كنت تطلبني؛ فماذا تريد مني؟

- أريد أن أوصيك بزوجتي وأولادي.

- ألم توصِني بهم، من قبل؟

- وشيء مهمّ آخر، أودّ أن...

- أذلك الذي صارحت به زوجتك؟

- وبماذا صارحتها؟

- ألم تقل لها إنك تحبّ أمرأة غيرها؟؟

واصفرّ وجه الرجل، وسال العرق من جبينه غزيراً، وأخذ يفكِّر برهة، ويده على جبهته، فعدت أقول له:

هل أرتفعت درجة حرارتك إلى هذا الحدّ؟

- اسمع ـ يا دكتور ـ هذه أشياء يمكنك أن تتأكّد منها إذا قرأت ذلك

الكرّاس اللعين.

- إذن، ماذا تريد مني؟

- أريد إن أوصيك بألّا تقرأ اعترافاتي إلّا بعد أن أفارق الحياة.

- سوف لن أقرأها، أبداً، على هذا الأساس، لأنك سوف لن تفارق الحياة.

- دعك من المراوغة. أتعُِدني بذلك؟ هذا كلّ ما أريده منك، في ساعاتي الأخيرة.

- حسنا.. أعاهدك، وأمري لله.. لكن، قل لي: لماذا قلت لمريم إنك تحبّ غيرها؟

ونهض الرجل واقفا كالمارد، وكأنه لم يكن مريضاً ميؤساً منه، وبعد برهة قال:

قلت لها ذلك لتكفّ عني أسئلتها المتكرِّرة.

وعاد إلى الجلوس على حافة السرير، وما إن سمعت كلامه حتى لم أعد أتمالك نفسي من الدهشة، فناديت: (مريم.. مريم).

ودخلت المرأة مسرعة، وما إن رأت زوجها جالساً، بكامل صحّته، حتى ارتسمت على شفتيها ابتسامة صادقة، وهي تقول: (أشكرك يا دكتور).
قلت:

بل اشكري سليماً.

- علامَ تشكرني؟

– على أن ما قلته لها لم يكن سوى وسيلة منك للتخلُّص من أسئلتها.

وسألت هي:

– التخلُّص من أيّ شيء؟

– من أسئلتك، كما يزعم.

– أنا لم أكن معه لحوحة، أبداً.

– على كلّ حال، فلتطمئنّ نفسك، وليرتَح ضميرك، يا سيِّدتي.

وغادرت منزل سليم، عائداً إلى شقَّتي.. إلى مرضاي.. إلى أحبابي، رغم ما يسبِّبونه لي من إزعاج، وفي نيَّتى ألّا أقرأ اعترافات سليم إلّا في إحدى حالتين: إذا فارق سليم الحياة، أو إذا شعرت بقرب نهايتي أنا.

ومضت سنة: اثنا عشر شهراً.. سنة قضيتها فيما تعوَّدت أن أقضي فيه أوقاتي، ولم أعد أفكّر في سليم ولا في اعترافات سليم، بل كدت أنسى مشكلة سليم، بتاتاً، لولا لقاءاتي به، بين الفينة والفينة، التي كانت تعيد إلى ذاكرتي لون ذلك الكرّاس، والجهد الذي بذلته في الحصول عليه. وهنا، آمنت أن سعادة الإنسان تكمن في الفترة التي يجري فيها وراء الحصول على شيء، فإذا حصل على ذلك الشيء زهدت فيه نفسه وقلَّت قيمته في نظره؛ فكم جريت وراء هذه الاعترافات! وكم شقيت! وكم تعبت! وكم سهرت! وكم رسمت من خطط، لمجرَّد أن أطلَّع عليها! والآن، ها هي ذي بين يديّ.. تحت تصرفي، فما يمنعي من قراءتها؟ هل هو مجرَّد الوعد الذي قطعته على نفسي لسليم؟؟ (طظ) في الوعود إذا كانت تحول دوني ودون شيء ألهث وراءه، خاصّة، أن الإخلال بمثل هذا الوعد البسيط لايترتَّب عليه أيّ ضرر لأيّ كان.

لكن، تلك هي طبيعة الإنسان، يجري ويتعب ويشقى، للوصول إلى غاية ما، فإذا وصل إليها.. إذا نال بغيته تبخَّرت لذّة الانتصار.

لم أعد أفكِّر، أبداً، في اعترافات سليم، بقدر ما كنت أفكِّر في نفسي.. في مرضاي.. في أصدقائي المصابين، من كلّ نوع، إلى أن كان صيف سنة 1958.

فمنذ إن تخرَّجت، تعوَّدت أن أقضي شهراً من أشهر صيف كلّ سنة، في إحدى بلدان أوروبا، للراحة والاستجمام، ولاسترجاع قليل من القوّة والنشاط. تعوَّدت قضاء شهر، كلّ سنة، بعيداً عن أيّة مسؤولية، متمتِّع بكامل حريَّتي.. أحسّ بأنني إنسان شاعر بوجودي، لأني أتمتَّع بكلّ حريَّتي، ولا أعيش داخل قوقعة مغلقة، في مجتمع متزمِّت، لا تدخلها الشمس، ولا يصلها النور والهواء.

تعوَّدت قضاء شهر من كلّ سنة، أنتقل خلاله من زهرة إلى زهرة، وكأنني فراشة تمتصّ الرحيق، وتتغذّى برضاب الزهور، فأشعر، آنذاك، بأنني حرّ غير مراقَب من أحد، ولا محجوز على حرِّيَّتي: لا يحاسبني أحد عمّا أفعل سوى ضميري، ولا يتتبَّعني أحد من المتطفِّلين الذين لاهمَّ لهم إلّا المراقبة والمتابعة لمعرفة: فلان أين قضى سهرته، وعَلّان أين ذهب بسيارته، ومن هي التي كانت تجلس إلى جواره. لكأنهم مكلَّفون بتقديم تقارير عن تحرُّكات زيد، وتصرُّفات عمرو، أو لكأنهم من أفراد بوليس الأداب الذين لا يهتمّون بك إلاّ إذا كانت بجوارك امرأة، ولو كانت زوجتك أو أختك.

وفي سنة 1958، اخترت مدينة باريس لقضاء عطلتي الصيفية، لا لأنني لم أرَها من قبل، ولا لأنني لم أزرها سابقاً، بل لأن لي فيها (جانيت) الشقراء، تنتظرني هذا العام، بحسب وعدي، الذي قطعته على نفسيه منذ سنتين اثنتين.

ذهبت إلى باريس، ونزلت الفندق الذي تعوَّدت أن أنزل فيه، وهو يطلّ على نهر السين العريق.. ووجدت (جانيت) في انتظاري، وفي شرفة الفندق المطلّة على مدينة النور والجمال والحبّ، جلست أطالع بعض القصص،

ذات ليلة، وأقرؤها بصوت عالٍ، حتى تسمعها الفتاة التي تجلس إلى جواري.

في ذلك اليوم، تذكَّرت أشياء كثيرة.. كثيرة جدّاً ما كنت لا ذكرها لولا تلك القبلة التي بادلتني إياها فتاتي الباريسية الحسناء، فذكَّرتني بجارتي ماريا وعلاقتي بها التي انقطعت، فجأةً، كما بدأت فجأة. ومن ماريا انتقلت بالذكرى إلى أيّام سليم عبد الملك وزوجته وولديه، وقفزت إلى ذاكرتي ـ أيضاً ـ اعترافات سليم التي بدأت قراءتها، ذات يوم، منذ سنة تقريباً، ثم توقَّفت عن متابعة القراءة، عندما طلب مني سليم عدم قراءة اعترافاته إلّا إذا مات، وقرَّرت، في نفسي، ألّا أقرأها إلّا في إحدى حالتين: إمّا في حالة موت سليم، أو عندي شعوري بقرب نهايتي. وشردت بذهني إلى أيّام طرابلس، عروس البحر الأبيض البيضاء، وسبحت مع أفكاري مصوِّباً نظري إلى صفحة السين الراكدة، فيما يشبه الذهول، وشعرت جانيت بما اعتراني في وجودها، أو ـ قل ـ بين أحضانها، على غير عادتي، فسألتني:

ما بك؟ فيم تفكِّر؟

– لا شيء...

– لعلك تفكِّر في فتاة غيري!

– عندما أكون معك تعوَّدت ألّا أفكر إلاّ فيك أنت، فحسب.

– إذن، فيمَ تفكَّر؟؟

– تذكَّرت أشياء كثيرة، تتعلَّق بأصدقائي في بلدي.

– ما هي هذه الأشياء؟ ألّا يمكنني سماعها؟؟

– إذا سمعتها لا فلن تهتمّي بها.

– ما أدراك؟ إن ما يهمّك يهمّني أنا، أيضاً. أفصح عمّا تفكِّر فيه وإلّا اتَّهمتك بالخيانة.

وخفتُ أن تتَّهمني بالخيانة، فعلاً، فقصصت عليها طرفاً مختصراً من موجز حياة سليم، إلى أن أتيت إلى ذكر اعترافاته، فألحَّت ـ في خبث أنثوي باريسي ـ على أن أقرأ عليها هذه الاعترافات، بعد أن تأكَّدت من وجودها معي، ولم أجد بدّاً من أن أقول لها:

– إنه يسمّيها «اعترافات إنسان»، وما أظنّكم، هنا، في باريس، تهتمّون بالإنسانية، في كثير، أو حتى في قليل. دعي الشرقيّين أو الإفريقيّين في حالهم، ولا تحاولي الزجّ بنفسك في مشاكلهم الخاصّة.

– إن ما تقوله لا يخلو من ظلّ للحقيقة، بالنسبة إلى غيري من الفرنسيين، ولكن رغم ذلك، أحسّ برغبة مُلحّة لسماع هذه الاعترافات.. أشعر برغبة مُلحّة لمعرفة ما يجول في خواطركم ـ أيّها الشرقيّون ـ عندما لا تفكِّرون في الاستقلال، ولا تفكِّرون في التحرُّر من ربقة الاستعمار.. عندما تفكِّرون في مشاكلكم الفردية.. في عواطفكم.

– ومن أنبأك أن هذه الاعترافات تتناول العواطف؟

– أعرف ذلك من اعترافاتنا في الكنيسة. إننا لا نذهب إلى الكنيسة، ونجلس

أمام (الأب) للاعتراف، إلّا إذا كان اعترافنا يتناول عواطفنا وقلوبنا.. لكن، اسمع، دعنا من كلّ هذا، وهات ابدأ قراءة اعترافات صديقك الإنسان.

– لقد وعدته بألّا اقرأها إلّا إذا مات، ونحن ـ العرب ـ نحافظ على وعودنا.

– أليس هناك حِلّ لك من هذا الوعد؟

– إذا شعرت بقرب نهايتي.

– كيف؟

– لقد عاهدته بألّا اقرأ اعترافاته إلّا في حالتين: إذا مات هو، أو إذا شعرت بقرب نهايتي أنا... وكلاهما لم يحدث بعد.

– افرض أن صديقك قد مات فعلاً، ومازلت أنت لا تشعر بقرب نهايتك!

– حتى لو سلَّمت معك بهذا الفرض، فلا أعتقد أن الشرفة مكان صالح للقراءة.. تعالَ ندخل الحجرة، وهناك يمكنني أن أفكِّر في الموضوع.

– فيمَ التفكير؟

– ألم أقل لك أنني وعدت، ولا يمكنني أن أخلف وعدي، بسهولة؟ لكن، معك ألف حقّ؛ فأنتم، هنا، لا تعرفون قيمة للوعود والعهود.

– لا تحاول أن تفلسف أقوالك.. دعنا في جوِّنا الشاعري الحالم، وافرض أن صاحبك قد مات، وهات اقرأ اعترافاته؛ لعلنا نجد فيها عظة لنا، وعبرة.

وسحبتني من يدي إلى داخل الحجرة، وبعد أن أغلقت الباب تمدَّدت على

السرير مسنداً رأسي على الحائط، بينما تمدَّدت هي إلى جواري، ووضعت رأسها، بشعره الذهبي اللامع، على حجري، فتناولت الكّراس الذي تركته ذات يوم منذ سنة، وبدأت أقرأ:

3 يناير

لست أدري لماذا لم أتزوَّج حتى الآن! إن أكثر أصدقائي وأحبابي قد تزوَّجوا منذ سنوات، وهم يقاربونني في العمر، فمثلاً: أين أحمد ومحمود وخالد وإبراهيم؟ ألم نكن ندرس معاً، في سنة واحدة؟.

أين هم الآن؟ لقد أصبح لكلّ منهم بيت وأسرة وأولاد، فلماذا لا أتزوَّج أنا، أيضاً؟ إنني متأكِّد من أنني لو تزوَّجت لكنت أسعد، في حياتي الزوجية، من كلّ أصداقائي هؤلاء؛ فما أعرفه عن هذه الحياة أكثر ممّا يعرفون. فلأفكر في الزواج، بصورة جدّيّة، ولأبحث عن زوجة، زوجة مثالية مثل تلكم الزوجات اللاتي أتخيَّلهنّ في عقلي، زوجة تقاربني ثقافةً ومعرفةً واطِّلاعاً، وتقاربني تمرُّداً على الأوضاع.. زوجة تفهمني كما أفهمها، وتعرفني كما أعرفها.. زوجة تأخذ بيدي إلى الحياة الهانئة التي أريدها؛ حياة متحرِّرة من القيود والأغلال والأوهام التي تكبِّل حياة كلّ زوجين في هذا المجتمع، الذي لا يزال يعيش على الفضلات، ويحيا وسط دوّامة من الخرافات.

وهنا، عادت رفيقتي تسألني:

ما هذه القيود التي يتحدَّث عنها صاحبك، ويقول إنها تكبِّل حياتكم

الزوجية؟ كنت أعتقد أنه لا يوجد بينكم، في بلادكم، من يعير مثل هذه النواحي أيّ اعتبار. كنت أعتقد أن همَّكم الوحيد ينحصر في البحث عن أنثى.. مجرَّد أنثى تبيت إلى جواركم فتدفِّئ فرشكم و..

- إنك واهمة ـ يا صديقتي ـ في اعتقادك هذا.. إنه اعتقاد خاطئ، لم يصلكم إلّا عن طريق كُتّابكم المغرضين الذين لا هَمّ لهم سوى الافتراء على الشرقيين.

وابتسمت (جانيت)، في خبث أنثوي، وقالت متسائلة:

- وما قولك في الجواري، والمحظّيات.. و.. الغلمان، أيضاً؟

- ذلك عهد مضى، ولن يعود. إن حياتنا في تطوُّر مستمرّ، وأنت لا تزالين تتحدَّثين عن عهد أبي نواس، رحمه الله.

- ونبيُّكم، ألم يجمع في عصمته ستّ نساء أو سبع، في وقت واحد؟

- تلك حالة استثنائية حَتَّمتها الظروف التي كان يمرّ بها المجتمع الإسلامي الوليد. إن فكرة تكوين الإمبراطورية الإسلامية التي كان يجب أن يعمّ نورها وسلامها وهدايتها كلّ أرجاء المعمورة، كانت تستدعي الكثير من البذل والكثير من التضحية. ومن بين هذه التضحيات الإنسانية النبيلة، الزواج من أرامل الشهداء، حتى لا يبقين عالة على المجتمع الناشىء الجديد.

- هذه الفلسفة، لا أفهمها.

- لأن رأسك محشوّ بالخرافات والافتراءات. إن ما قام به نبيُّنا هو أسمى

آيات البذل.

- دعنا من الأنبياء... عد إلى قراءتك؛ إنني لا أفهم في الأديان شيئاً.

- إنه الخوف من أن يبهركم النور.

- لم أفهم ماذا تعني!

- دعي الفهم لأصحابه.

- إذن، عد إلى قراءتك.

وعدت أقرأ:

17 يناير

أعتقد أن الزواج هو الطريق السليم للاستقرار في حياتي.. هو العمل الوحيد الواجب اتِّخاذه بالنسبة إليّ. لقد تزوَّجت كلّ أخواتي سوى واحدة، هي اليوم مخطوبة، وسيتمّ زفافها غداً، وعندها.. عندما تتزوَّج أختي لن نجد، أنا وأبي، مَنْ يعولنا في البيت.. فلماذا لا أتزوَّج، خاصّة أن أبي يلحّ على زواجي؟ هل أنا ممَّن يخافون الزواج؟ لا أعتقد، بل إنني أدرك أن ما تعلَّمته، وما عرفته وما اطَّلعت عليه كفيل بمساعدتي على خلق حياة زوجية سعيدة.

ليس هناك ما يمنعني من الزواج، بل كلّ ما يحيط بي.. كلّ ظروف حياتي تسوقني، مجبراً، إلى الزواج.. إن الزواج بالنسبة إليَّ أمر ضروري

جدّاً، إنه الطريق الوحيد الذي يمكنني أن أسلكه في هذه الحياة، فما أنا من شباب الليل الذين يملكون السيارات الفخمة، فيشبعون رغباتهم وميولهم بواسطتها.

3 فبراير

والدي، هو الآخر، يحثّني على الزواج حثًّا، ويرى ـ كما أرى أنا ـ أنه أمر ضروريّ، لي وله، وهو لا يريد أن يفرض رأيه في مثل هذه المسائل.

بقيت تكاليف نفقات الزواج، فهي ـ لا شكّ ـ تكاليف باهظة، غير أنني أعتقد أن ما لديَّ من مال مدخَّر كفيل بأن يريحني من التفكير في هذه الناحية.. إنني موظَّف منذ أكثر من أربع سنوات، ومرتَّبي لا بأس به، وأبي لا يأخذ مني شيئاً، وأنا لست مبذِّراً أو مسرفاً، ولقد وضعت مشروع زواجي نصب عيني، منذ أوَّل يوم دخلت فيه التوظيف، فلماذا كنت أتعب، وأشقى، وأحرم نفسي من كلّ متعة، إن لم يكن ذلك من أجل تكوين أسرة وبناء بيت؟ وها هو ذا الوقت قد حان كي أقيم البيت، وأكوِّن الأسرة.

لاشكّ في أن نفقات الزواج باهظة، وأنا لا أعتمد على والدي في هذه النقطة، لكن هذا ليس مبرّراً لعدم إتمام زواجي... فلأتوكَّل على الله.

وهنا، سألتني (جانيت)، مرّة أخرى:

كم تبلغ نفقات الزواج، في بلادكم، تقريباً؟

- بين السبعمئة، والألف وخمسمئة جنيه.

– كم تدفع الفتاة من هذا المبلغ؟

– فتياتنا لا يدفعن شيئاً.. الرجل، فقط، هو الذي يدفع.

– الشابّ يشتري الفتاة؟

– ليست العملية عملية بيع وشراء.

– ما هي إذن؟

– إنها قضيّة دِيْن... ديننا يأمرنا بدفع شيء اسمه (المهر).

– هل الدين هو الذي حدَّد هذا المبلغ الكبير؟

– لا، أبداً. الدين الإسلامي أسمى من أن يفعل ذلك، لكنها العادات التي نشكو ونئنّ منها.

– حسناً.. عد إلى قراءتك.

– بشرط ألّا تقاطعيني، مَرّةً أخرى.

– لن أقاطعك أبداً.. سأكون كالقطّة، أستمع فقط.

وعدت أقرأ:

15 فبراير

أبي على حقّ، حين قال لي: «يجب عليك ـ يا سليم ـ أن تختار زوجتك بنفسك». إنه لا يريد أن يفرض رأيه في مسألة تخصّني، ولا يريد أن يتحمَّل

مسؤولية ما قد يحدث في المستقبل، وهو عوَّدني على تحمُّل مسؤولية أعمالي وأقوالي وأفعالي.. منذ الصغر وهو يربّيني تربية ديموقراطية محضة، كلّ دوره فيها التوجيه والإرشاد، يحاول، دائماً، أن يشعرني بحرّيَّتي، لأحسّ بوجودي.

الدور ـ إذن ـ دوري أنا. المهمة مهمَّتي أنا.. المسؤولية مسئوليَّتي أنا، ولا أحد يشاركني في تحمُّل المسؤولية. أنا الذي يجب أن أختار، وأبحث عن الفتاة التي أعتقد أنها ستكون زوجة صالحة لي. لكن، ما الطريق إلى ذلك؟ كيف أختار زوجتي؟ كيف أعرفها؟ كيف أطَّلع عليها، والعرف، لا الدين، يمنعني من مزاولة هذا الحقّ الإنساني البشري الوجودي؟؟.

إن الاختيار عندي أنا لا يعني الشكل واللون والأسرة، فحسب، ففي هذه الحالة يهون الأمر، لكن الاختيار، في نظري ـ بحسب فلسفتي ـ يتناول مسائل أخرى لا تقلّ أهمِّيّة عن مجرَّد الحسب والنسب والجمال: إنه يعني معرفة الميول والذوق والفكر والعقل والإدراك..

أنا لا أبحث عن مجرَّد الجمال، لأنني من الذين يقنعون بجمال (بين بين)، إن ما أبحث عنه.. ما لا أتنازل عنه.. ما لا يمكنني الاعتماد فيه على أحد.. الشيء الذي يهمّني، ولا يجوز أن أكون معتمداً فيه على ذوق غيري وخبرة سواي، هو أن تكون زوجتي التي ستشاركني أعباء هذه الحياة، مدّة الحياة، تحمل من الآراء مثل ما أحمله، وتعتقد مثل ما أعتقد، وتؤمن بما أؤمن أنا به.

فأين أجد مثل هذه الفتاة؟

ربّما، هناك كثير من الفتيات يحملن مثل هذه القيم والمفاهيم التي أحملها. لكن، أين هّن؟ أين أجدهنّ؟ من يدلُّني عليهنّ؟

إن الطريق الوحيد، لاختيار فتاتك في هذا المجتمع، هو أن تكِّلف إحدى قريباتك بالبحث لك عن فتاة تناسبك، فأين هذه القريبة: الأمّ أو الأخت أو العمّة أو الخالة التي تفهم الحياة كما أفهمها، وتعيها كما أعيها؟ لو كان الأمر مقتصراً على الجمال، فحسب، لما كانت هناك مشكلة يحسّها كثيرون غيري، لكن المشكلة الرئيسية هي مشكلة التفكير.. النضج.. الوعي.. الاستجابة للحياة التي نعيشها.. الفهم الصحيح للحياة المفروضة علينا، والفهم الصحيح للحياة التي يجب أن نعيشها. ليس أمامي إلّا طريق واحد: أن اعتمد على نفسي فأستعمل وسائلي الخاصّة في البحث عن زوجة، وليكن، بعد ذلك، ما يكون، سواء أ أخفقت أم وُفِّقت، إنني مستعدّ لتحمُّل نتائج اختياري.

27 فبراير

لماذا لا أجرِّب حظّي، وأعمل بنصيحة هذا الصديق؟

إنها من أسرة محترمة ومتعلَّمة، وما دامت أسرتها متعلِّمة فلابدّ أنها متحرِّرة من نير العادات وقيود التقاليد، فالتعليم وحده هو ما يحرِّر الإنسان، ويفكّ قيوده، ويبعثه على التفكير والتعمُّق. التعليم هو طريق تحرُّر المرأة. وهل يمكن لفتاة جاهلة أن تكون متحرّرة؟ لا، هذا أمر مستحيل... وإذا افترضنا وكانت الجاهلة متحّررة، فإن تحرُّرها يكون

وبالاً عليها، فجاهلة متحرِّرة أقرب إلى الفساد من جاهلة متزمِّتة.

قال صديقي إن أسرتها أسرة متحرّرة، وجميع أفرادها متعملِّون، وأمس أكَّدت لي خالتي ـ أيضاً ـ هذا القول، فقد كانت تربطها بأسرتها رابطة جيرة قديمة.

5 مارس

بحسب المعلومات التي استقيتها، لابّد أن تكون هذه هي الفتاة التي كُتبت لي والتي أبحث عنها، والتي تليق بي زوجةً وشريكة حياة. نعم، إن دراستها محدودة قليلة، لم تجاوز السنة الابتدائية السادسة، و ـ فعلاً ـ ليس هذا بمستوى دراسيّ لائق بزوجتي. لكن، أليس للوسط الذي تعيش فيه أثر على تفكيرها؟

ثم، أليس في استطاعتي، عندما تصبح لي زوجة، أن أساعدها على زيادة معلوماتها؟ فبشيء من الحكمة والصبر وطول الوقت والمعاناة، أستطيع أن أخلقها خلقاً جديداً. قالوا إن للفتاة تربيتين: تربية في منزل والديها، وتربية في منزل زوجها، وأنا سأكون زوجها، وسأوجِّهها بحسب مشيئتي، فهي ـ كغيرها من بنات هذا المجتمع ـ أشبه شيء بالعجينة الليِّنة التي يمكنك أن تصنع منها أيّ شكل من النساء تريد. وهذه الفتاة ـ بالذات ـ لا تزال صغيرة السنّ، لم تجاوز التاسعة عشر إلّا بقليل، وهذا ـ لا شكّ ـ ممّا يزيد في تفاؤلي على مقدرتي على خلقها خلقاً جديداً، كما أريد أنا. لا جدال في أنها هي الفتاة التي كُتبت لي زوجة، دون غيرها من الفتيات

الأخريات، وإن كنت ـ شخصيّاً ـ لا أؤمن بحكاية (القسمة والنصيب)، في مثل هذه الأمور الحسّاسة.

وهنا، كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً، فالتفتت نحوي جانيت الشقراء قائلة:

أشعر بحاجتي إلى قليل من النوم. هل يمكنك أن تتوقَّف عن القراءة؟

– لا يمكنني ذلك قبل أن أصل إلى معرفة السرّ الذي كنت أبحث عنه منذ سنوات، حتى أعجزني البحث، وكدت أعود خالي الوفاض.

– إذن، اجلس على الأريكة، ودعني أتمدَّد على الفراش.

– منذ صغري، تعوَّدت عدم الرقاد في النور.

ولم أجد بدّاً من الجلوس على الأريكة، في الركن الثاني من الحجرة، حتى أتمكَّن من متابعة قراءتي، بينما تمدَّدت (شقرائي) على السرير، وأشعلت النور الأحمر القريب منها، وقبل أن أعود إلى القراءة، عادت تسألني:

– هل تتزوَّجون، في بلادكم، بدون حبّ، يا دكتور؟

– إن أكثريَّتنا لا يعرفون الحبّ إلّا بعد الزواج.

– وهل تسعدون في حيواتكم الزوجية المقامة على غير أسس الحبّ؟

– أنت تعلمين ـ يا جانيت ـ أنني غير متزِّوج؛ لذا فأنا لا استطيع إجابتك عن هذا السؤال، لكنني أعلم أن 90% من حالات الزواج في بلادنا موفَّقة، ولم يفرِّق الطلاق بين طرفيها.

– هل تعتقد أن الطلاق هو (الترمومتر) الصحيح لمعرفة السعادة في الزواج؟

– هذا ما يعتقده البعض، على الأقلّ، فإن من يشقى في زواجه، يمكنه أن يتخلَّص من شقائه بالطلاق.

– هذا وهم. أؤكِّد لك أن الطلاق وعدمه، لا يدلاّن على السعادة الزوجية ومدى قوى الترابط بين الزوجين، فلو قُدِّر لك أن تعرف ما وراء جدران بيوتكم، لهالَكَ الواقع الذي تعيشونه. إن كثيراً من غير المطلَّقين من هم أشقى وأتعس ألف مرّة من المطلّقين. ولولا اعتبارات أخرى، لأمكنك أن تشاهد تهدُّم كثير من البيوت، وتشرُّد كثير من الأبناء.

– لكن، لا تنسي أن الشعور بالشقاء، والإحساس بعدم القدرة على التخلُّص منه، أكبر معوِّل لهدم السعادة الإنسانية.

– أنا لا أناقشك في صحّة هذا القول، وأرى أنه يجب عليكم البحث لأنفسكم عن حَلّ.

– وما هو الحلّ، في نظرك، يا فليسوفة باريس؟

– أن تجعلوا الحبّ، قبل الزواج، طريقاً إلى روابطكم الزوجية.

– وإذا كنّا لا نستطيع ذلك؟

– لماذا؟ هل دينكم لا يقرّ الحبّ بين الناس؟ ألم تقل إنه دين حبّ وتسامح؟

– لم تكن القضية قضية دين، إنما هي قضية عادات، يحافظ عليها الناس

أكثر من محافظتهم على دينهم.

- يجب أن تحطِّموا هذه العادات.. أن تحاربوها.. أن تتخلَّصوا منها.

- بأيِّ سلاح نحاربها؟؛ إن هناك من يرعاها ويحافظ عليها، بل يقدّسها تقديساً.

- حاربوها بالسلاح الذي ترونه مناسباً لها.. دعوا المرأة ـ مثلاً ـ تخرج إلى الشارع.. تدخل ميادين الحياة، حتى يمكنكم أن تقابلوها وتتعرَّفوا بها.

- هذه طريق إلى الهاوية.. إلى الفساد.. إلى الانحطاط.. فقبل أن نسمح للمرأة بالخروج إلى الشارع، علينا أن نسلِّحها بالعلم.. بالمعرفة.. حتى لا تكون فريسة سهلة، تتلقَّفها الذئاب الجائعة، وحتى تتمكَّن من مقاومة المغريات.

- لكم أن تتَّبعوا الطريق الذي يساعدكم. المهمّ أن تتخلّصوا من الزواج العمياني.

- سوف نتخلَّص منه بالطريقة التي نراها صالحة وممكنة، لا بالطريقة التي ترينها أنت. إننا نبحث عن حلول لمشاكلنا، بما ينبع من نفوسنا، ومن طبائعنا، ومن أرضنا، ولا نقبل أن تأتينا الحلول من الخارج... من خارج حدودنا.

- إنك تسيء فهمي، فقد حوَّلت المناقشة إلى مناقشة سياسيّة، وهذا شأنكم، دائماً، أيّها الشرقيون؛ ما إن يناقشكم غربيّ في موضوع ما، حتى تحوِّلوا

النقاش إلى السياسة. لا يمكنني أن أستمرّ معك أكثر من هذا... تصبح على خير.

والتفَّتْ إلى الجهة الأخرى لتنام، بينما عدت أنا إلى قراءة مذكّرات سليم عبد الملك.

14 مارس

لا أزال متردِّداً بين الإقدام والإحجام: الإقدام على خطوبة مريم، والإحجام عن ذلك... إن أقوال الناس فيها مختلفة متباينة: بعضهم يشكر ويمدح، وبعضهم يذمّ ويقدح، وأنا حائر بين القادحين والمادحين. لا أعرف كيف أتصرَّف، ولا أعرف بأيّ الرأين آخذ، ولا بأيّهما أرمي عرض الحائط. إن الناس يختلفون ـ عادةً ـ في آرائهم وأفكارهم، ولا يتَّفقون على شيء، وأنت تحار إذا أردت الاعتماد على أقوال الناس.

من حيث الجمال، كلّهم متَّفقون على أن جمالها وسط (بين بين)؛ لا هي بالجميلة ولا هي قبيحة المنظر، لكن التناقض وعدم الاتِّفاق منصبّ ان على مدى صلاحيّتها زوجة لي أنا: بعضهم يقول إن تفكيرها سليم، وعقلها راجح، وبعضهم يزعم العكس.. بعضهم يقول إنها متحرِّرة، وبعضهم يزعم أنها متحجِّرة. قال لي بعض الناس إنها فتاة تحمل عقلاً متحرِّراً وفكراً ناضجاً وإدراكاً واعياً، وهي خير من تصلح زوجة لي وشريكة حياة، وبعضهم ينفي عنها كلّ هذا، ليصفها بالتحجُّر والجمود والخمول.

أنا حائر.. حائر جدّاً: لا أعرف كيف أتصرّف، ولا أعرف ماذا أفعل. صحيح

أنني لا أبحث عن الجمال المفرط، وأقنع بالجمال والشكل المقبولْين، إنما كلّ همي ينصبّ في البحث عن عقل.. عقل يفهمني وأفهمه.. عقل يدرك رسالتي في هذه الحياة، وفكر يقدِّر أفكاري، ويؤمن بآرائي التي تتراءى لبعضهم آراء متطرّفة بعيدة عن الواقع. إنني أبحث عن زوجة ذات عقل متحرِّر وإرادة منطلقة، تساعدني على تحقيق آرائي وأفكاري. وتقتنع بصوابها، بعد تفكير وتروٍ، ولا تسلِّم بها لعدم استطاعتها مناقشتها أو دحضها. أبحث عن زوجة إنسانة، ولا أبحث عن مجرَّد أنثى تطبخ طعامي، وتنظّف منزلي، وتدفِّئ فراشي، ثم تنتظر أوامري في استسلام الضعفاء. أنا أرى المرأة نصف الرجل، نصف الوجود، الرجل في حاجة إليها، تماماً، كحاجتها هي إليه، لا يمكن لأحدهما أن يستغني عن الآخر وإلّا فقد الاحساس بوجوده، وفقد الشعور بكيانه. على هذا الأساس، ولفهم المرأة ودور المرأة ومهمّة المرأة، كوَّنت فكرتي عن الزوجة التي أريدها أن تعيش معي هذه الحياة.

على هذا الأساس، بدأت أشعر بحاجتي إلى امرأة، إلى إنسانة تفهمني وأفهمها، أكثر من حاجتي إلى أنثى تطفئ ظمأ غريزتي، امرأة تُشعرني بوجودها إلى جواري، بحاجتي إليها، تناقشني بعقلها، عندما تناقشني، ولا تجادلني بعقلية جدَّتها ولغة خالتها، امرأة تعيش في النصف الثاني من القرن العشرين، وتفكِّر بعقليّة النصف الثاني من القرن العشرين، وتنظر إلى الحياة من خلال منظار النصف الثاني من القرن العشرين، ولا أريدها امرأة تفكّر بعقلية القرن الخامس عشر، وتعيش على اجترار الماضي، أيّام كانت المرأة لا ترتفع عن مستوى أثاث البيت الذي يشتريه الرجل، ويتحكَّم فيه وفي مصيره وفي حياته، يحتفظ به متى شاء،

ويستغني عنه متى أراد. أريد امرأة إنسانة، ولا أريد أنثى. ترى من أيِّ نوع من النساء تكون مريم؟ أهي إنسانة؟ أم تراها مجرَّد أنثى؟

إنني في حيرة.. في قلق.. في خوف.. ولولا هذه العادات، لما شعرت بكلّ هذه المشاعر من الخوف والحيرة والاضطراب. لولا هذه العادات التي تكبِّلنا وتغلّنا، وتحجز على حريّاتنا، وتشلّ إراداتنا لاستطعت أن اختار زوجتي، كما أريدها أنا.

29 مارس

لست ـ والله ـ أدري: لماذا نمنع من مزاولة حقّ إنساني شريف، وهبتنا إياه الحياة؟ لماذا يُحال بيننا وبين ما أباحه لنا الدين والعقل والمنطق ومتطلَّبات الوجود الإنساني؟ لماذا نُمنَع من التمتُّع بالحرّيّة التي هي أساس وجودنا، في هذا الوجود؟ كيف يُسمَح لنا أن نختار لون ونوع القماش الذي سنتَّخذ منه بدلة يمكننا الاستغناء عنها في كلّ وقت، ثم نُمنعَ من التمتُّع بهذا الحقّ، حقّ الاختيار، عندما نحاول اختيار زوجاتنا وعشيرات حياتنا؟

كلّ شيء في الوجود.. كلّ شيء في الحياة يبيح لنا التعرُّف إلى اللواتي سنتَّخذهن زوجات ورفيقات لنا طوال رحلتنا الحياتية.

فأنا، عندما أتزوَّج، لا أتزوَّج ليوم، ولا أتزوَّج لسنة، ولا أتزوَّج حتى لعشر سنوات، فحسب، بل أتزوَّج لمدى العمر.. أتزوَّج امرأة سوف لن يفصل بيني وبينها سوى الموت والفناء. وبعد كلّ هذا، يحرمونني من

حقّ اختيارها. أنا لست من الذين يؤمنون بحكمة الطلاق، ولا حتى ممَّن يستيسيغون استعمال هذه الرخصة التي منحَنا إيّاها الدين، فأساء استعمالها الكثيرون من الجهلة والمغفَّلين. إن الطلاق رخصة دينية، لا يستعملها الإنسان العاقل إلّا إذا عجز عن إصلاح شأن زواجه، ولا يستعملها إلّا في حالات الضرورة القصوى، فلماذا نحاول التقليل من مساوئ الطلاق، الذي هو أبغض الحلال إلى الله؟

إنني من الذين يؤمنون بقدسية الحياة الزوجية، ومن الذين يقدِّسون الرباط الزوجي، لكن، أيّة قدسية، وأيّ رباط مقَّدس لحياة لا تقوم على المنطق، ولا تقوم على العقل، ولا تقوم على أيّ مفهوم من مفاهيم الحياة، بل لا تقوم على أيّ مفهوم من مفاهيم الدين؟

لكن.. ماذا يفيد هذا الكلام الذي أقوله أنا؟ وماذا تفيد ثورتي أنا وغيري من الأفراد القليلين؟! إننا لا نستطيع أن نحقِّق شيئاً ممّا نؤمن به ونعتنقه من المبادئ، لأن المسألة ليست مسألة أفراد؛ إنها مسألة مجتمع.. قضية مجموعة، وكلّ علاج فرديّ لهذه الأوضاع لا يأتي بأيّة نتيجة إيجابية، بل لابدّ من عمل جماعي.. لابدّ من ثورة شاملة عامّة تطيح بهذه السخافات والأوهام والأكاذيب والترَّهات.

وأمام هذا المنطق.. أمام هذه الحقائق، أنا لا يمكنني أن أعمل شيئاً، لا يمكنني أن أغيِّر شيئاً، لا يمكنني أن أقوم بأي عمل إيجابي، كثيراً كان أم قليلاً، لأبدِّل من هذه الأوضاع الفاسدة المتعفِّنة.

ليس أمامي إلّا أن أخطب هذه الفتاة. إن سعادتي معها.. إن تفاهمي

معها، قد تكون أضمن من سعادتي وتفاهمي مع أيّة فتاة سواها.

أمس، قال لي والدي: «اسمع ـ يا سليم ـ أنا لا أريد أن أفرض عليك رأيي في موضوع لا يتعلَّق بأحد كما يتعلَّق بك أنت وحدك. لا أريد أن أفرض عليك رأيي في موضوع زواجك. لقد أصبحت رجلاً تقدِّر مسؤولية وجودك، وتميِّز بين الخير والشرّ، بين ما ينفعك وما يضّرك. أنت حرّ، تزوَّج مَن شئت، وكلّ دوري، في هذا الشأن، أن أخطب لك الفتاة التي تختارها. لا أريد التدخُّل في شؤونك الخاصّة، فأنت الذي ستعاشر هذه المرأة لا أنا، وعليك أن تختار بنفسك المرأة التي تليق بك، لأنك، وحدك، ستتحمَّل نتيجة اختيارك».

أرأيتم ـ أيُّها الآباء ـ هذه الديموقراطية التي نشَّأني عليها أبي، منذ الصغر. إنه لا يريد أن يفرض رأيه في موضوع يراه من أخصّ خصوصياتي، ولا يريد أن يتدخَّل في شؤوني الخاصّة، ويريدني أن أتحمَّل مسؤولية ما آتي من أفعال وأعمال. ربَّما، تقولون إن سبب ذلك (أنني ابنه الوحيد بين سبع بنات). لكن، ثقوا أن طبعه ـ كما عرفته ـ هو هو، لن يتغيَّر أبداً، ولو رُزِق عشرين ولداً لا ولداً واحداً. هكذا عرفته، منذ سنوات طفولتي المبكّرة: يجلسني أمامه، ويقول لي في هدوء: «إنك ترغب في عمل كذا، وأنت حرّ، يمكنك أن تفعل ما تشاء، لكنني أفضِّل، فقط، لو أنك لا تفعل هذا وتفعل ذاك». بهذه الطريقة. كان يقنعني بخطأ رأيي وصواب رأيه، دون أن يشعرني بأنه يُخضعني لآرائه. وفي كثير من المرّات كان يقتنع بصواب رأيي، فيعود ويقول في هدوئه المعهود: «إن رأيك صواب، يا سليم.. لقد أخطأت أنا». هكذا نشَّأني أبي، فهل نشَّأتم أنتم أبناءكم هذه التنشئة، أيُّها الأباء؟.

12 أبريل

ما أسخف هذه العقلية التي تسيطر على عقول نسائنا؟

لقد جاءتني إحدى قريباتي، هذا الصباح، وجلست أمامي تقول:

اسمع يا سليم: إني أعرف مريم من أيّام الصغر. إنها ليست (وحشة)، بل هي جميلة، وهي خير من تصلح لك زوجة.

وأردت أن أعابثها وأطَّلع على أفكارها، فقلت لها:

كيف حكمت أنها جميلة؟ قالوا أنها (وحشة).

– كذب.. كذبوا عليك. إنها جميلة: وجهها مستدير، وبشرتها بيضاء، وأنفها دقيق صغير، وعيناها واسعتان، وطولها معتدل، وشعرها أسود طويل يكاد يصل إلى ركبتيها. ما رأيك في هذه الصورة؟ أليست جميلة؟؟

– حسن هذا، لكن، كيف حكمت أنها خير من تصلح لي زوجة؟.

– أنا أعرف أنك تكثر من القراءة، وترغب في الهدوء، وهي ـ كما أعرفها ـ لا تميل إلى الثرثرة. إنها صموت عاقلة رصينة.

– هنا، لا أتَّفق معك.

– لماذا؟ لماذا لا تتَّفق معي، يا سليم؟ هل أنت رجل طائش، فتريد امرأة طائشة مثلك؟ عهدي بك رجلاً عاقلاً!

– ليس الموضوع موضوع طيش وعقل، بل لأنني لا أميل إلى المرأة

الصموت، إنني أفضِّل المرأة التي تتحدَّث كثيراً، فالإنسان ـ عادةً ـ كلما كثر حديثه كثر نقاشه، ومن كثر نقاشه وَسِع أفقه، وغزرت معلوماته العامّة.

- يمكنك أن تخلق فيها هذه الصفة عندما تنتقل إليك. يا حسرتاه على أيّام زمان!! أيّام كانوا يفضِّلون المرأة الصموت التي تجلس إلى جانبك يوماً كاملاً فلا تسمع منها كلمة واحدة.

- تلك أيّامكم، وأولئك مغفلون.. يتزوَّجون من دُمَّي لا من نساء.

- على كلّ حال، هذا هو رأيي، ولك وحدك الكلمة الأخيرة.

أرأيت بأيّة عقلية يحكمون على الزوجة؟: إنهم يريدونها دمية، قطعة من أثاث البيت، تجلس إليك يوماً كاملاً لا تحادثك ولا تناقشك. يا لها من عقلية سخيفة هذه التي تسيطر عليهم، وتطبع نظرتهم إلى المرأة!!

20 أبريل 1952

وافقت على إعلان الخطبة.. غداً يذهب والدي فيطلب لي يد مريم من والدها.

22 أبريل

وافق والد مريم.. قَبِل طلبنا، وحَدَّد يوم 30 من هذا الشهر لإعلان الخطبة

رسمياً. اللهمّ، اجعلها خطبة مباركة، وخطوة أولى نحو سعادتي في هذه الحياة.

1 مايو

هأنذا، أضع (دبلة) الخطوبة في إصبعي، ولاشكّ في أن مريم تضع مثلها في إصبعها. فاللهمّ، اكتب لنا النجاح والتوفيق والسعادة والهناء.

لقد حُدِّد شهر أغسطس المقبل لإتمام الزواج، وإن لم يُحَدَّد، بعد، يوم الزفاف، بالضبط. إن والد مريم لم يشتطّ في طلباته وشروطه، لقد كان إنساناً بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معاني الإنسانية، فكانت طلباته معقولة مقبولة، وعندما أخبره والدي بأنني سأقيم ومريم في منزل ومستقلّ، أجاب: «هذا لا يهمّني.. لا أريد أن أحمِّل سليماً فوق طاقته، فليفعل ما في وسعه، ولو أقام وإيّاها في عشّة أو زريبة. المهمّ أن يكون سعيداً معها، وتكون سعيدة معه». وقد أشار والدي عليَّ بذلك، لأنه كان يؤمن بضرورة انفصال الابن عن أسرته، في السكن، بعد زواجه، فالواقع أن مبدأ الاستقلال بعد الزواج، مبدأ منطقيّ معقول، بل هل أمر مفروغ منه، وأنا ـ شخصيّاً ـ أؤمن به، وأقرّه، وألحّ عليه، أمّا بالنسبة إلـي وضعي أنا فسيتمّ لي كلّ ما أريد؛ فوالدتي متوفّاة، وكلّ أخواتي متزوِّجات، عدا فطومة، وهي مخطوبة، أيضاً، وسيتمّ زواجها قريباً، و ـ ربّما ـ كان ذلك في الأسبوع نفسه الذي يتمّ فيه زفافي. إذن، لم يبق أحد يشاركنا البيت، أنا ومريم، سوى والدي، الذي سوف لن نحسّ بثقله، ولن يشعرنا بأيّ ضيق أو مضايقة.

عندما عادت شقيقتي الكبرى، أمس، من منزل مريم، قالت لي وهي تبتسم: «مبروك، يا سليم. إن مريم فتاة عاقلة كما تراءت لي، ورغم أنها ليست جميلة، بإفراط، فهي ليست قبيحة الشكل. إنها مقبولة».

كلّهن.. كلّ النساء سواء في تفكيرهنّ؛ لا يفكِّرن إلّا في الجمال والقبح!! من قال لهنّ إنني أبحث عن الجمال؟؛ فأنا لا أبحث إلّا عن فتاة تفهمني وأفهمها، وتضع يدها في يدي لنسير معاً نحو الغاية التي ننشدها. أرجو أن تُحَقَّق أحلامي مع مريم.. خطيبتي.

11 مايو

لا جديد في الموضوع، إذا استثنيت التحضيرات والتجهيزات الضرورية لإتمام الزواج؛ زواجي أنا، وزواج فطومة شقيقتي. لقد طلب والد مريم أن أجهِّز حجرتين اثنتين: حجرة نوم، وحجرة أكل، وأراد خطيب فطومة أن يتمّ زفافه مع زفافي، في يوم واحد، واستحسن والدي الفكرة، حيث قال: «إن دخول مريم إلى البيت، سيخفِّف من وقع خروج فطومة منه، فإننا نستعدّ، هذه الأيّام، لاستقبال أسبوع الزواج».

22 مايو

لم نحددِّ يوم الزفاف بعد، وإن كنا قد حدَّدنا الشهر الذي سيتمّ فيه. وهكذا، لم يبق على ذلك سوى أقلّ من ثلاثة أشهر، وأنا انتظر على أحرّ من

الجمر، لا لأطفئ غريزتي، لكن لأرى نتيجة امتحاني، نتيجة اختياري، فهل تحقِّق مريم، التي اخترتها بنفسي، كلّ آمالي وأحلامي؟ مَن يدري!! هل ستكون تلك الفتاة التي انتظرتها طويلاً، وكَّونت لها صورة مشرقة في خيالي؟ أنا ـ قطعاً ـ لا أفكَّر في جمالها، فليس للجمال ذلك القدر من الأهمِّيّة عندي، بل أفكرِّ في أيِّ نوع من النساء تكون زوجتي: هل ستكون من النساء الخاملات الكسولات المتواكلات، أم امرأة متحرِّرة مدركة عاقلة تساير تطوُّر الحياة؟

لقد حاولت، طوال هذه الأيّام، أن أراها، ولو من بعيد.. ولو خلسة، على حين غفلة منها، فذهبت محاولاتي أدراج الرياح. كم مررت من أمام منزلها.. من تحت نوافذها؛ لعلّني ألمحها ولكن، عبثا حاولت، فأنا لم أرَها قطّ، لا خلف الباب ولا وراء النافذة، لكنها لا تطلّ على الشارع أبداً، وحتى لو أنها كانت تطلّ على الشارع، ورأيتها، فكيف لي أن أعرفها، وأن أميِّزها عن غيرها: عن شقيقتها الصغرى، مثلاً، التي قالوا أنها أكثر منها سمرةً، وأكثر امتلاءً؟ أنا لا أعرف هذه، ولا تلك، فكيف أميِّز بينهما؟.

30 مايو

أمس، مساءً، تقابلت ـ صدفة ـ مع ابن عمها، في أحد المقاهي، وهو شابّ في الثلاثين من عمره، كلّ ما أصفه به هو أنه مغرور، وتحادثت معه حديثاً طويلاً، عرفت خلاله أنه شابّ يرى نفسه أكثر من حقيقته. إن هذا الشاب المغترّ لم يعجبني؛ فهو أنانيّ جاهل، كلّ أحاديثه تدلّ على جهله وأنانيَّته وغروره، فهو يدَّعي أنه درس في إحدى الجامعات المصرية، وتخرَّج فيها، وحصل على بكالوريوس الطبّ، ثم أوفِد في بعثة

إلى بريطانيا لإتمام دراسته، وظننت أن نتيجة هذه الدراسة والاحتكاك بالمجتمعات الأخرى، في الخارج، قد غيَّرت الكثير من عقليَّته وتفكيره ونظرته إلى المرأة، وحكمه على الحياة، وإذا بي أكتشف أنه سطحيّ جدّاً: معلوماته العامّة بسيطة جدّاً، وعقليَته لا تزال متحجّرة، وفكره لم يتحرَّر من رواسب الماضي، بعد، و- ربَّماـ هذا ما دفع مريم إلى رفضه، عندما تقدَّم إليها قبل سنة، تقريباً، وحاول أن يقنعني بوجهة نظره القائلة: «إن المرأة للبيت» وهي (حريم). وعندما ناقشته في هذا الموضوع وضح عجزه وقصوره أمام جمع من الأصدقاء، فلم يجد ما يسند به أقواله وادّعاءاته، وحين أُفحِم بحججي، قال في عجرفة متناهية: «هل درست في الخارج، يا أستاذ سليم؟» وأجبته: «لا، والحمد لله.. إن كلّ دراستي لم تتجاوز السنة التوجيهية هنا، في طرابلس». وأغرق هذا الديك الأبيض في الضحك حتى دمعت عيناه، ثم قال: «أمّا أنا فخرِّيج.. خرِّيج جامعة، وأحمل شهادة، ومعلوماتي أوسع وأكثر وأخصب من معلوماتك». وشعرت بقوّة خفيّة تدفعني إلى صفعه.. إلى صفع هذا الديك الأبيض المنتفخ، وتلقينه درساً قاسياً، في احترام مشاعر غيره، لن ينساه.. ماذا يعتقد في نفسه هذا المغفلَّ المغرور؟: هل يظنّ أن العلم وقف عليهم وحدهم، هم خرّيجو الجامعات؟ ونحن ـ الذين لم يسعفنا الحظّ لم تساعدنا الظروف على الدراسة في الخارج مثلهم ـ ألا نمثّل أمامهم شيئاً سوى الجهل؟؟.

شعرت برغبة ملحّة تدفعني إلى صفعه، لكنني عدت وتمالكت أعصابي، فقلت له ببرود تشوبه السخرية (ماذا تفيد الشهادة التي تحملها إذا لم تساعدك على فكّ الأغلال التي تغلّ عقلك، أو إذابة الثلوج المتراكمة على تفكيرك؟ «انقع هذه الشهادة إذا لم تشقّ أمامك طريق الحياة» وتركته دون أن أزيده كلمة أخرى.

10 يونيو

حُدِّد يوم الاثنين، الموافق 5 أغسطس المقبل، لعقد القران، أمّا ليلة الدخلة فستكون ـ بعون الله ـ ليلة الخميس، الثامن منه.. سواء، في ذلك، أنا وفطومة، فستكون دخلتنا في ليلة واحدة.

19 يونيو

ما هذا، يا ربّ؟ ماذا حدث؟ لماذا كلّ هذه المعاكسات؟ لقد فاجأني سيادة المدير، مدير المصلحة التي أعمل بها، بأن أجهِّز نفسي للسفر في مهمّة ضرورية ومستعجلة إلى مصر، تستغرق شهرين. قال إن السفر سيكون يوم 5 يوليو، فلماذا كلّ هذا، يا ربّ؟ هل أرفض السفر، أم أقبله؟ إذا قبلته تأخَّر موعد زواجي، وإذا رفضته ضاعت مني سفرة إلى القاهرة، لأوّل مرّة في حياتي- ربَّما- تساعدني على معرفة جوانب جديدة في حياة الناس. إذن، ليس من المناسب الرفض. فَلأقبلها، ولْيَتأخَّر زواجي بعض الوقت، وأمري لله.

23 يونيو

والدي، هو الآخر، يستحسن سفري، فالقيام بمهمّة أُسندت لي، دون غيري من زملاء العمل، فرصة يجب ألّا أضيِّعها. وقد اتَّصل والدي بوالد مريم وأطلَعه على الأمر، فوافق، هو الآخر، على هذه الفكرة، غير أن الشيء

الذي يحيّرني ويقلقني هو موضوع خالد، خطيب فطومة؛ إنه يلحّ على ضرورة إتمام زواجه في الموعد المحدَّد، وفطومة ترى ألّا يتمّ زواجها وأنا في الخارج، ترى، هل يقبل خالد مبدأ التأجيل؟

3 يوليو

تأجَّل سفري إلى القاهرة حتى يوم 25 يوليو، وهذا ممّا يزيد في تعقيد الأمور مع خالد، خطيب فطومة. أرجو أن نتمكَّن من التغلُّب عليه.

14 أغسطس

أنا، الآن، في القاهرة، وهذه رسالة من والدي استلمتها صباح اليوم، يقول فيها: «خالد يلحّ على إتمام زواجه، وحاولت أن أقنع فطومة بذلك فلم تقتنع، وأصرّت على الرفض، حيث أقسمت ألّا يتمّ زواجها في غيبتك، مهما كلَّفَ الأمر، ولو أنها فسخت خطبتها، وقالت أيضاً: ليذهب خالد إلى الجحيم، سوف لن يكون لي عرس وأخي.. شقيقي.. ابن أميّ وأبي غير حاضر، ولو كان خالد هذا هو الرجل الوحيد في الدنيا، ولو كُتب عليَّ أن أعيش عانساً مدى الحياة، وحاولت أختك الكبرى إقناعها فلم يفد شيء معها، وقالت: كيف تطلبون مني أن أوافق على إتمام زواجي عليه؟ إن دون ذلك موتي.. أرأيت ـ يا سليم ـ إلى أيّة درجة تحبّك فطومة أختك، وتعزّك؟».

أجل، أنا أعرف أن فطومة تحبّني، وأعرف أنها تفضِّلني على نفسها. إنني لا زلت أذكر يوم جلسنا، أنا وهي، نبحث موضوع زواج إحدى صديقاتها، وكان أخوها في السجن ينتظر كلمة تخرج من أفواه القضاة لتحدِّد مصيره، وقد وجَّهت لومي إلى صديقاتها، وعجبت كيف ترضى أن يتمّ زواجها وشقيقها مصيره بين يدي القدر، ويومها قالت فطومة تدافع عن صديقتها: «لا تلمْها، يا سليم.. إنها مسكينة.. إنها مجبرة.. مجبرة على زواجها بهذا الرجل الذي هو أبعد الرجال عنها، لأنه أقلّ منها علماً، وأقلّ منها مستوًى، وأقلّ منها تفكيراً. ورغم ذلك، أُجبرت على قبوله، شأنها شأن أيّة فتاة أخرى في هذا المجتمع، وهي مجبرة على إتمام زواجها في هذا الظرف.. ظرفها السيِّئ». ويومها، ظننت أنها، أي فطومة، تحمل هي الأخرى مثل هذه الفكرة، وإذا بالأيّام تكذِّب ظنّي، إذ ترفض فطومة إتمام زواجها لمجرَّد أنني مسافر عن البلد.. سامحك الله، يا فطومة، كم تمتازين عن غيرك من الفتيات!!

7 أكتوبر

عدت من القاهرة يوم 3 أكتوبر الجاري، وحالما رأتني فطومة ضمَّتني إليها، في شوق ولهفة بالغَيْن، فشكرتها على مشاعرها نحوي، وما أبدته من تضحية في سبيلي. وأمس، اتَّفق والدي ووالد مريم وخالد خطيب فطومة، على أن يتمّ كلّ شيء خلال هذا الشهر: عقد القران يوم الأحد: 25 أكتوبر، والدخلة مساء يوم الخميس الذي يليه: 29 أكتوبر.

حاولت أن أسترسل في القراءة، فلم أستطع. كان النوم يغالبني ويضطرّني

على الرقاد. نظرت إلى الساعة فإذا هي الخامسة والنصف صباحاً، فقمت، مرغماً، إلى السرير أتمدَّد بجانب جانيت التي كانت مستغرقة في نوم عميق، وشعرها الذهبي يحيط بوجهها الجميل. ثم استغرقت في نوم عميق لذيذ، بعد القراءة والسهر والجهد والإعياء، لم أستيقظ منه إلّا بعد منتصف اليوم التالي. وأوّل شيء فعلته عندما استيقظت هو البحث عن جانيت التي لم أجدها إلى جواري، فظننت أنها قد رحلت على، حين غفلة مني، دون أن تودّعني، فقد عوَّدتني تجاربي ألّا أثق في النساء، من أمثالها، أبداً. وقبل البحث عنها في أركان الفندق، لفت نظري قميص نومها الورديّ الشفّاف معلَّقاً على المشجب، في مكانه المعتاد، فسارعت أرتدي ملابسي في سرعة وعجلة، وخرجت أبحث عنها في الفندق، فوجدتها تجلس مع فتاة وشابّ، لم أرهما معها من قبل، حول منضدة، واقتربت منهم، فما إن رأتني حتى وقفت تستقبلني وترحِّب بي، وتقدِّمني إلى صديقيها، بوصفي صديقها الشرقي الحميم، كما قدَّمتهما لي قائلة:

– مس مارجريت وخطيبها المستر جون، من إنجلترا، جاءا يقضيان فترة إجازتهما الصيفية في باريس.

– تشرَّفنا.. أهلاً وسهلاً.

سحبت مقعداً أجلس عليه إلى جوارهم، ودار بيننا، بعد ذلك، حديث ودّي (بالفرنسية، طبعاً) لأنني لم أكن أعرف اللّغة الإنجليزية، إلى أن حان وقت الغداء. ولكي أظهر لهم أنني شرقيّ، فعلاً، دعوت مارجريت وجون لتناول الغداء معنا، فلم يمانعا، بل رحَّبا بأن يكونا ضيفينا، وتناولنا غداءنا في مطعم الفندق، وقبل أن ينصرف الضيفان، غمزتني جانيت كي

أدعوهما لتناول العشاء معنا، أيضاً، ولم أجد بدّاً من توجيه الدعوة، التي قَبلاها مرحِّبيْن شاكرَيْن. وانصرفنا نحن ـ الأربعة –، على موعد اللقاء في موعد تناول العشاء. ذهبت أنا وجانيت إلى حجرتنا، وبعد استراحة قصيرة خرجنا في نزهة على شاطئ نهر السين العريق. وهناك، جلسنا على مقعد عتيق تحت شجرة عجوز، نعيد الذكريات، ونرسم خطوط المستقبل. ولم ندرك كم مضى من الوقت علينا في جلستنا تلك، إلى أن بدأت مصابيح الشوارع تبعث بخيوط أنوارها الباهتة تضيء ما حولنا، وقمنا عائدين إلى الفندق، إلى أن كانت الساعة تشير إلى التاسعة، تقريباً. وهنا، توجَّهنا إلى المطعم وما هي إلّا لحظات حتى حضر ضيفانا الكريمان، وأسرعت جانيت تقترح أن نتناول طعامنا في غير هذا الفندق، وسألت:

نحن لا نعرف باريس كما تعرفينها أنت، فأي مكان تقترحين؟

– اتبعوني، وأنا أقودكم إلى أحسن مطعم، في أحسن حَيّ.

وقمنا نسير معها إلى حَيّ (سان جرمان)، ثم دخلنا إلى ما ظننّا أنه مطعم، فإذا به صالة رقص.. موسيقى صاخبة تنبعث من أحد الأركان.. الراقصون اثنين اثنين.. الأضواء خافتة باهتة.. سألت جانيت:

ما هذا؟ إنه مرقص وليس مطعماً، بل إنه ما...

– هذا ليس من اختصاصك.. إنه مطعم، أيضاً.

وفي أحد الأركان المظلمة النائية، جلسنا حول مائدة. وقبل أن يسألنا أحد ماذا نريد، حضر أحد خدم المطعم والتفت إلينا يسألنا ماذا نريد أن نأكل، وطلب كلّ واحد منا ما يريد. وما إن انتهينا من الأكل، حتى شعرنا

بأقدامنا تسوقنا، رغماً عنّا، إلى حلبة الرقص، وبدأنا نرقص، أنا وجانيت وجون وخطيبته، ثم أنا وخطيبة جون، وجون مع جانيت.

كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحاً.. غادرنا ذلك المكان عائدين إلى الفندق، بعد أن ودَّعنا ضيفينا، دخلنا حجرتنا ونحن في حالة من النشوة والانشراح لا توصف. وعندما بدأت جانيت تغيِّر ملابسها، التفتت، فجأةً، إلى الباب فوجدت رسالة مستعجلة من والدتها تدعوها للعودة حالاً إلى (نيس)، وبأسرع ما يمكنها من الاستعجال، فحالتها في خطر، وهي تريد أن ترى ابنتها الوحيدة، قبل أن تفارق الحياة، فأسرعت جانيت تجهِّز أمتعتها للسفر في قطار الساعة الثامنة صباحاً.. ولم نشأ أن نضيِّع ليلتنا الأخيرة، هذه السنة، هباءً.

وأخيراً، حان موعد الفراق.. موعد سفر جانيت.. عودتها إلى بلدها (نيس). رافقتها في تاكسي إلى محطة القطار، وفي المحطّة ودّعتها، على أمل اللقاء في الصيف القادم، إذا لم تساعدها الظروف على العودة سريعاً، هذه السنة. لقد اتَّفقنا على اللقاء السريع العاجل، بعد يومين، فقط، إذا كانت حالة أمّها قد تحسَّنت، ولا تستدعي بقاءها إلى جوارها، إذ ستجدني في انتظارها، وكذلك تعود (جانيت) إلى باريس إذا كانت أمّها قد فارقت الحياة، فبدلاً من أن تعاني الوحدة والوحشة والفراغ تعود إلى باريس فتجدني... أمّا إذا لم تعد خلال اليومين، فعندها أكون في حِلّ منها، ومن حقّي البحث عن فتاة أخرى غيرها.

جاء القطار، وسافرت جانيت، وبقيت وحدي داخل مبنى المحطّة، أحملق، تارةً، في الخيط الرفيع من الدخان الذي خلَّفه القطار وراءه،

وتارةً أخرى، في وجوه الناس الذين يغصّ بهم المكان، على سعته، وهم بين مسافر وقادم ومستقبل ومودِّع، وتارة ثالثة، أمعن النظر في الاسم والعنوان المكتوبين على القصاصة التي في يدي، وأفكِّر في شكل صاحبة هذا الاسم.. وقبل أن أقرِّر ماذا يجب أن أفعل، وكيف أتصرَّف في مثل هذا الموقف، شعرت بما يشبه المخدِّر يسري في كلّ جزء من جسمي حتى كدت أجلس على أحد مقاعد محطّة سكّة الحديد، وأدركت أنه الإرهاق والتعب والسهر. لقد تعبت الليلة الماضية والليالي التي قبلها، وها هو ذا ردّ الفعل، فقرَّرت، حالاً، العودة إلى الفندق وأخذ قسط من الراحة، قبل أقرِّر مصيري.

عدت إلى الفندق وحدي، وأنا أشعر بحاجتي إلى الراحة، وبحاجتي إلى النوم، لعلَّني أعوِّض شيئاً منَ النشاط الذي فقدته طوال الليالي السابقة.

ودخلت الفراش، فإذا بي بارد كالثلج.. بارد أكثر ممّا يجب. وعندها، أدركت فضل (جانيت)، وقبل أن أفكِّر في الفراغ الذي خلَّفَته جانيت وراءها، شعرت بالتخدُّر مرَّةً أخرى، وغلبني النوم، فاستغرقت في نوم عميق مليء بالرؤى والأحلام.

نمت ذلك اليوم والساعة تشير إلى العاشرة صباحاً، وعندم استيقظت كانت الساعة تشير إلى الثالثة من مساء اليوم التالي، فأسرعت إلى الحمام آخذ (دشّاً) بارداً، أعاد إليَّ كثيراً من النشاط والحيوية، ثم ارتديت ملابسي، وخرجت إلى بهو الفندق أتناول قهوة بدون سكر، ونظر نحوي صاحب البار نظرةً تحمل كثيراً من المعاني، وظلُّ ابتسامةٍ يتراقص على شفتيه، ثم سلَّمني برقية، وهو يقول: «وصلت حوالي الساعة الحادية عشرة

صباحاً، وأردت أن أسلِّمها إليك في حينها، لكنني وجدت حجرتك مغلقة من الداخل، وحاولت إيقاظك فلم تستيقظ، فظننت أنك مشغول.....».

ولم أردّ على ثرثرته بأيّة كلمة، بل أخذت أفضّ البرقية في عجلة، وأنا أستغرب كيف وصلت جانيت بسرعة، وكيف كتبت لي هذه البرقية. أتراها تعود، أم أبحث عن غيرها؟؟ لكن، سرعان ما خاب ظنّي، فقد كانت البرقية من طرابلس، وكانت تقول: «عد حالاً.. السيد عبد المعطي في خطر».

وهذا (عبد المعطي) الذي شاء أن يقطع إجازتي ويقصف رقبة متعتي، ببرقيته المشؤومة، كان أحد رجال الأعمال في طرابلس يدير تجارة واسعة، في الداخل والخارج، أصيب، ذات يوم، بداء الرئة، وكنت طبيبه حيث تولَّيت علاجه حتى شُفي، قبل ذهابي إلى باريس بأيّام قليلة. وزيادةً في الحيطة، أعطيته عنوان إقامتي في باريس، قبل سفري، حتى يتَّصل بي في حالة الضرورة الملحّة.. وما دام قد اتَّصل بي فلابدّ أن حالته في خطر، فعلاً، وإلّا لما تجرَّأ وحاول قطع فترة راحتي القصيرة هذه، والعودة بي إلى ذلك الجوّ الخانق الذي كثيراً ما ضقت به، وشكوت منه.

وكان أوَّل شيء فعلته، أنذاك، أن أبرقت إلى جانيت أخبرها بسفري المفاجئ، وطلبت من إدارة الفندق أن تحجز لي على أوَّل طائرة، في طريقها إلى طرابلس.

ما إن وصلت حتى سارعت لأعود السيِّد عبد المعطي، و- فعلاً- وجدته في حالة تكاد تكون ميئوساً منها.. كانت حالته خطرة جدّاً؛ ما جعلني آمر، حالاً، بنقله إلى المستشفى، وأتَّصل بمستشفى مطار الملاحة العسكري أطلب منه حقناً غير متوفّرة إلّا هناك.

ومضت عشرة أيّام، وأنا ملازم فيها السيِّد عبد المعطي، لا أفكّر إلّا في المعجزة المساوية التي قد تساعدني على إعادة الحياة إلى هذا العجوز المتصابي الخائف من الموت، لكن السماء لا تمطر ذهباً. لم تسعفني بالمعجزة المرجوّة، فما إن كان اليوم العاشر من عودتي إلى طرابلس، حتى كان السيّد عبد المعطي قد أسلم الروح إلى خالقها، وفارق الحياة. ومن يومها، لم تعد لي أيّة مشكلة تلهيني عن العودة إلى حياتي الروتينية المعهودة، فعدت أفكّر في مشاكلي الخاصّة، وتذكَّرت سليماً ومذكِّرات سليم، فشعرت بكثير من تأنيب الضمير ولوم النفس لعدم سؤالي عنه وعدم زيارتي له. فرغم أنني عدت منذ عشرة أيّام، إلّا إنني لم أتَّصل به، ولم أسأل عنه بعد أخذتني دوامة السيد عبد المعطي، فأنسَتْني سليم بن عبد الملك وجعلتني طوال العشرة أيّام، لا أفكّر إلّا في المعجزة السماوية التي تنجّيه من الموت. وعندما عجزت عن استنزال هذه المعجزة. عدت أفكِّر في سليم، فسارعت أتَّصل به تلفونياً، وأدعوه للحضور، فوراً، إلى شقَّتي، وعجب الرجل من وجودي في طرابلس، وكان يظنّني لا أزال في باريس، فسألني، في استغراب:

أين تريدني أن أقابلك؟ في باريس؟!!

وقهقهت كثيراً قبل أن أجيبه:

أنا في طرابلس.. إنني أكلِّمك من بيتي.. من شقّتي في المدينة. وعاد يسأل، في دهشة واستغراب:

متى عدت؟ أنزلت من السماء، أم نبتَّ من الأرض؟

وقلت في برود:

أنا هنا منذ عشرة أيّام.

وقال سليم في استنكار:

منذ عشرة أيّام وأنت في طرابلس، وأنا لا أسمع عنك، وأنت لا تسأل عني إن كنت حيّاً أم ميِّتاً؟؟

وقلت في توسّل:

لا تؤاخذني.. مشاكل الحياة كثيرة.. سأشرح لك الموضوع الليلة.

وقال سليم، في استسلام:

على كلّ حال، لا أريد أن أطيل عليك الحديث، الآن. سنتقابل الليلة عند الساعة العاشرة. انتظرني في شقّتك، وستدفع الثمن غالباً، يا ناسي أصدقائك.

والتفتُّ أنا إلى الحاجّة زينب أقول:

حضِّري حجرة الجلوس، يا حاجّة.

– علاش يا دكتور؟ أنت ما قعدتش فيها من يوم ما رجعت.. وما درتش فيها سهرة أبداً. شنو فيه الليلة؟

– صديق جاي يسهر معاي.

– أشكون هو هذا الصديق؟ أحسن لك، يا دكتور، لو تتجوَّز وترتاح.

– حرام عليك يا حاجّة.. شنو ظنّيت؟ والله العظيم إلّا سليم.

– أمرك، يا دكتور.. حاضر، وهذي نصيحة ليك.. أنت عمرك فوق الأربعين عام، ما شاء الله، وما زال ما فكرتش في الزواج؟

– أنت، يا حاجّة، ديمة تنصحي فيَّ بالزواج، عندكش حاجة كويِّسة تسّر، تقولي لي عليها؟

– ما كثَّر ربّي غير البنات.. أنت نويت تتزوَّج هذه المرّة، بالحقّ؟

– المرّة هذي نبي نفكِّر بالجدّيّات في الزواج.

– نبي نفكّر!! أنت درت زيّ الراديو زمان (نبي انفكّر).. اسمع، اسمع كيف تكمل تفكيرك؟ قولي لي.

– اسمعي يا حاجّة، أني زيّ ما تعرفي أنت، عيني واسعة، شبحت كثير، وشفت كثير، وعرفت كثير، وتمتَّعت كثير.. ونبيّك، ادّوّريلي بنت كويسة.. بنت ناس و...

– اسمع.. بعد ما تفكّر تعالَ لي أني انقولّك على البنت اللي تصلح بيك.

وتركتني الحاجّة زينب، وبدأت تجهِّز حجرة الجلوس التي سألتقي فيها مع سليم.

وكانت الساعة تشير إلى العاشرة، مساء ذلك اليوم، عندما حضر سليم إلى شقَّتي. وبعد السؤال عن الصحّة وعن الأطفال وعن سير العمل، جلسنا نتحادث ونتبادل الكؤوس المثلَّجة، ونتجاذب أطراف أحاديث، من هنا

وهناك. وكانت أحاديثنا عابرة لا رابطة بينها، ولا هدف لها، إلى أن سألني سليم عن رحلتي إلى باريس، وكيف قضيت أيّام إجازتي هناك، ولماذا عدت بكلّ هذه السرعة، على خلاف عادتي. وماذا عملت خلال هذه الأيّام القلائل، وكيف قضيت تلك الليالي في جوّ باريس، مدينة الحبّ والجمال والإغراء.. وكنت أجيبه، على كلّ أسئلته، إجابات قصيرة مقتضبة، دون أن أتعرَّض إلى ذكر موضوع الاعترافات؛ خوفاً من أن يتَّهمني بمخالفة العهد الذي قطعته له على نفسي، واكتفيت بأن ذكرت له كيف كنت أجلس مع جانيت في شرفة الفندق المطلّ على النهر، اقرأ لها القصص الفرنسية، وهي تستمع إليّ بإصغاء، وكيف نقضي لياليا بعد ذلك، دون أن أتعرَّض إلى ذكر الاعترافات، لكنه لم يدعني استمرّ في تجاهلي للموضوع، فأفرغ كأسه الثالثة في جوفه، ثم عاد يسألني:

- لا شكّ في أن من بين القصص التي قرأتها على مسامع صاحبتك الفرنسية كانت «اعترافات إنسان»، اعترافاتي أنا.

ولم أستطع الإنكار.. لم أستطع أن أتمادى في عدم مواجهة الواقع، فقلت له:

قرأت لها بعضاً منها.. لم أتمكَّن من مقاومة غريزة حبّ الاستطلاع.

قال، في استغراب:

ألم تعاهدني على أنك لن تقرأها إلّا بعد وفاتي؟

- أجل، لقد وعدتك، لكنك لم تعلم إنني كنت متلهِّفاً على معرفة سرّ هذه الاعترافات.. على معرفة السرّ الذي كتبته بقلمك في هذه الصفحات

الخرساء؛ لذا لم أتمكَّن من مقاومة الشعور الذي يعتمل في داخلي، ويدفعني، رغم أنفي، إلى قراءة اعترافاتك. أرجو أن تسامحني، يا سليم.

– حسناً... أنا أعرف ذلك.. أعرف أنك لا تستطيع أن تضعها بجوارك، دون أن تطلَّع عليها. بل لقد عجبت كثيراً كيف لم تطَّلع عليها إلّا الآن؟ وكيف لم تقرأها من اليوم الذي سلَّمتك إيّاها؟

إنني لا ألومك على ذلك لو فعلت.. لا ألومك أبداً على إخلافك بالوعد.. لكن، قل لي: هل انتهيت منها؟؟

– لا.. لم أقرأ منها إلّا قليلاً. كنت كلَّما حاولت الاسترسال في قراءتها، عاكستني اللعينة (جانيت)...

– إلى أين وصلت في قراءتك، إذن؟

– إلى يوم (7) أكتوبر، على ما أذكر.

– ماذا أقول في هذا اليوم؟

– أعتقد أنك قلت: «إن الاتفاق قد تَمَّ على أن يكون القران يوم 25 أكتوبر، و(الدخلة) يوم الخميس، 29 منه».

– إذن، فأنت لم تصل، بعد، إلى الشيء الذي كنت تبحث عنه، ولم تعرف ماذا تَمَّ بعد القران، ولم تعرف ماذا حدث بعد ليلة الدخلة.. لم تعرف ماذا حدث بعد مضيّ سنة واحدة على ليلة الدخلة؟؟

– لم أعرف شيئاً من كلّ هذا، لأن (جانيت) كانت تمنعني من الاسترسال

في القراءة، لكنني سأطَّلع على كلّ شيء.. في المستقبل.

- يظهر أنك لا تزال مصمَّماً على الاستمرار في القراءة.. قراءة الاعترافات؟

- حتى أعرف السرّ الذي أخفيته عني كلّ هذه المدة.

- ما رأيك لو قصصت عليك بقيّة الاعترافات بنفسي؟ أنا أفضِّل ذلك.

- وأنا أخشى أن تخفي عني بعض الجوانب. إن ما يبوح به الإنسان للآخرين، ليس مثل ما يبوح به لنفسه.

- تأكَّد أنني سوف لن أخفي عليك شيئاً، مهما صغر.. سأقصّ عليك كلّ شيء، بالتفصيل، وكما حدث إلّا ما ضيَّعته الذاكرة، وستجد أن ما أقصّه عليك أكثر دقَّة وصدقاً ممّا كتبته في الكرّاس.

- ربّما، كلَّفك ذلك كثيراً من الوقت والجهد؟

- لا.. إن ذلك لا يكلِّفني شيئاً. أمامنا عّدة ليالٍ، قد لا نجد لها حديثاً أمتع من هذا الحديث. أنت تدرك أن ليالي طرابلس ليست مليئة كليالي باريس الصاخبة، فلنملأها بهذه القصّة.

ومنذ تلك الليلة، بدأنا نلتقي، أنا وسليم، في شقَّتي، بعد التاسعة من مساء كلّ يوم، وبدأ هو يقّص قصّته التي أنقلها إليك، هنا، بكلّ أمانة، وبكلّ دقّة، حتى تقف بنفسك على لون من ألوان حياة الناس في هذا المجتمع.. أنقل إليك صورة حّية واقعية لحياة أسرة من هذه الأسر الكثيرة التي تعيش خلف الجدران.. جدران البيوت التي تتراءى لنا، في كثير من الأحيان، أنها تعيش في دعة وأمن وسلام. ولو قَدّر لنا أن نخترق الجدران.. أن ندخل

البيوت من غير أبوابها.. من نوافذها، لهالَنا ما نراه، وما نشاهده داخلها.

بدأ سليم يروي قصّته، فقال:

ما إن كان يوم الاثنين: 25 أكتوبر، سنة 1951، حتى تَمَّ عقد قراني على مريم.. على الفتاة التي اخترتها بنفسي، بمحض إرادتي، بالطريقة التي تراءت لها أنها طريقة مثلى.. سألت عن أسرتها، وسألت عن مستوى تعليمها، وسألت عن طريقة حياتها، فعرفت عنها الشيء الكثير. وقّدمت لي في طبق من ذهب خالص، كما يقولون، فخلتها هي الفتاة التي أبحث عنها، والتي لا يمكنني أن أسعد في الحياة مع غيرها من النساء.. هكذا، صوَّرها لي عقلي الذي لم يعرف ما هي المرأة، في أيّ يوم من الأيّام.. وهكذا صوَّرها لي الذين شكروها أمامي.

وجاء يوم الخميس: 29 أكتوبر، 1951، فكانت ليلة (الدخلة)، وليتها ما كانت. كانت ليلة دخلتي أنا على مريم، وليلة دخلة شقيقتي فطومة، أيضاً، فقد تَمَّ كلّ شيء كما كان يريد والدي، ويرغب. خرجت فطومة من البيت، ودخلته مريم، وكأن شيئاً لم يحدث. كأن أحداً لم يخرج، وأحداً لم يدخل. وتمنَّيت، ليلة دخلتي، لو كانت والدتي حّية، تراني (عريساً قَدّ الدنيا)، لترى إبنها، الذكر الوحيد الذي رُزقت به بعد مجموعة من البنات، وهو يبني بيتاً، ويكوِّن أسرة، ويعِّمر عشّاً. وهذا ما تمنّته أخواتي تلك الليلة، تمنَّين لو كانت والدتنا موجودة حتى ترى وتنظر وتفرح معهنّ، وانقلبت فرحتهنّ، تلك الليلة، إلى حزن، بعد أن انخرطن في بكاء حارّ صامت، خاصّة فطومة المسكينة التي خُيِّل إليها أن ذلك لم يكن عرساً، إنما هو -بالنسبة إليها- مأتم.

ومرَّت ليلة (الدخلة) كما تمرّ كلّ ليلة في حياة الشباب. ومرَّت الليالي التي تعقب ليلة الدخلة. وبعدها، شعرت بشيء من الراحة، وشعرت بشيء من الهدوء، وبشيء من الاطمئنان، وحمدت الله على أن كلّ شيء قد تَمَّ كما فكّرت، وكما قَدَّرت، ولم أدر ماذا كان يخبِّئ لي القدر.

شعرت، في حرارة أيّام وليالي وأشهر الزواج الأولى، بكثير من الراحة، وبكثير من الطمأنينة، وأحسست بأنني أحبّ مريم.. أحبّها بكلّ عواطفي، بكلّ حرارة حبّي البكر، لأنها كانت أوّل حبّ في حياتي القاحلة المالحة، فأنا لم أجرِّب حبّاً قبل حبّها، ولم أعرف فتاة غيرها.. لم أجرِّب قبل حبِّها حبّاً عميقاً متبادلاً، بالمعنى الصحيح المتعارف عليه للحب المتبادل بين كلّ حبيبين.. لم أجرب مثل هذا الحب، وإن كنت قد مررت بتجربتين، قبل ذلك، لا أريد أن أخفيهما عنك يا دكتور.. كانت تجربتي الأولى عندما أحببت إحدى قريباتي.. تعرَّفت إليها بحكم القرابة منذ الصغر.. منذ أن كنّا نلعب معاً، ونجري معاً هنا وهناك، دون رقيب، ومن غير مراقبة، وشعرت يؤمئذ، نحوها، بحبّ؛ حبّ عميق أخذ يقوى ويشتدّ، شيئاً فشيئاً، رغم أنني لم أصارحها به، لأنني في تلك الفترة البعيدة، من أيّام طفولتي، ما كنت أعرف أن هذا الشعور الذي أشعر به نحوها هو ما يسمّونه (الحبّ). ومرّت، بعد ذلك، فترة طفولتنا، وتغيَّرت نظرتنا إلى الحياة، وتغيَّرت نظرة كلّ منّا نحو الآخر؛ بدأت هي تنظر إليّ على أساس أنني رجل، وأنا أنظر إليها على أساس أنها امرأة.. بدأ جسدها يكتنز ويكتسب طابع الأنوثة.. وشعر أهلنا بالتغيُّر المفاجئ الذي حدث في مشاعرنا وعواطفنا، فسارعوا إلى إبعاد كلّ منا عن الآخر.. حجبوها عني، ولم يعودوا يسمحون لنا باللقاء أو الاجتماع أو اللعب معاً، كما كنّا أيّام زمان، فلم تعد تراني ولم

أعد أراها. لم نعد نلتقي ولا نلعب معاً، ولا تجري هنا وهناك. ورغم ذلك، استمرّ حبّي لها.. استمرّ هذا الحبّ يقوى على مرّ الأيّام والسنين. وعندها أردت أن أختبر شعورها نحوي: هل تبادلني هذا الشعور؟. هل تحسّ بما أحسّ به؟ فلقد تعلَّمت أن الحبّ لا يسمّى حبّاً، بالمعنى الصحيح، أو لايكون وسيلة لسعادة الناس، إلّا إذا كان حبّاً، متبادلاً بين الحبيبَيْن، وأنا لا أستطيع أن أحكم على نوع حبِّنا هذا، أو- بالأحرى- حبّي هذا؛ إذ إنني لا أعرف شعورها نحوي، وإن كانت تحبِّني كما أحبّها. وإن كانت تحسّ بمثل تلك الرعشة التي أحسّ بها كلّما سمعت صوتها، أو الحديث عنها! أنا لا أعرف شيئاً عن كلّ ذلك، كثيراً كان أم قليلاً.. فحاولت أن أتَّصل بها.. أن أسبر غورها.. أن أكتب إليها رسالة، وأطلب منها أن تبيِّن لي موقفها مني أو موقفها من حبِّي لها، وكدت أفعل.. كدت أكتب إليها بكلّ ما أشعر به وأحسّ، لولا أنني علمت، في آخر لحظة، أنها تميل إلى شابّ آخر قريبها هو، أيضاً، وأنها تودّ لو تتزوَّجه، وأن تبني معه عشّاً سعيداً، غير أنني لم أصدِّق شيئاً ممّا سمعت، ولم أستطع أن أجزم برأي محدَّد في الموضوع، إلى أن كان يوم، جاءني فيه قريبها هذا يقول:

- اسمع، يا سليم: أنا أحبّ عائشة، وأميل إليها، وآمل أن أتمكَّن من الزواج بها، وقد علمت أنك أنت الآخر تميل إليها وتحبّها، فهل هذا صحيح؟

- ومن أخبرك بذلك؟

- لقد أخبرتني هي بكلّ شيء.. كانت تلاحظ كلّ انفعالاتك كلّما كلّمتها.

- افرض أن ما تقوله حقّ، فماذا تريد مني؟

– لا أريد منك شيئاً.. كلّ ما في الأمر أنني أطلب منك أن تبيِّن موقفك في صراحة ورجولة. قلت لك إنني أرغب في الزواج منها، لكنني لا أريد أن أقيم حياتي الزوجية على أنقاض حياتك أنت، وسعادتك، فإذا كنت ترغب فيها، وتحبّها: فهي لك، تقدَّم إليها، واطلب يدها، وستجدني في عونك، وإلّا فدعني أتقدَّم إليها أنا.

وأدركت أن صاحبي يحبّ فتاته، وأنها تحبّه هي الأخرى، وأنه مصمِّم على طلب يدها، لكنه قرَّر أن يأخذ رأيي أنا في الموضوع، أوَّلاً، حتى لا يحدث بيننا، نحن– الاثنين– ما يعكّر صفو صداقتنا، فقد كنا أصدقاء، درسنا معاً، سنة بعد سنة، وتخرَّجنا معاً، وتوظَّفنا في يوم واحد: أنا في نظارة المواصلات، وهو في نظارة الأشغال. وما إن سمعت كلمات صديقي هذا حتى شعرت، في قرارة نفسي، بأن الذي يقف أمامي الآن، ويخيِّرني، ويفضِّلني على نفسه إنما هو إنسان عملاق.. إنسان ارتقت به إنسانيَّته، فأردت أن أثبت له إنسانيَّتي، أنا الآخر، ولا أكون أقلّ منه (عملقةً)، فسارعت أجيبه على الفور:

– مبروك.. تقدَّم أنت، يا أخي. إنك أَوْلى بها مني؛ فأنت تحبّها وهي تبادلك هذا الحبّ، وأنا لن أقف مطلقاً حجر عثرة في سبيل سعادتكما، ونموّ حبّكما.. أنني أهنِّئك من صميم قلبي، مقدَّماً، وأرجو لكما كلّ سعادة وهناء.

ومن يومها لم أعد أفكّر في هذه الفتاة، فقد انقلب حبّي لها إلى حبّ من نوع آخر.. إلى حبّ أخويّ؛ شعرت بأنها أخت لي، وزوجها أخ كريم لي، كذلك.

هذه حادثة، أمّا الحادثة الثانية، فهي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، وقعَتْ عند ما تعرَّفت إلى فتاة، عن طريق الصدفة. كنت وقتها أقيم مع أسرتي في الريف، وآتي إلى الحاضرة، يومياً، بواسطة السيّارة العامّة، وكانت هي تعمل مدرِّسة في الدورة المسائية في قريتنا، فكانت الصدف تجمعنا، في السيارة، عند عودتي أنا من العمل، وذهابها هي إلى المدرسة. وشيئاً فشيئاً، حدث بيننا قليل من التقارب، انقلب إلى نوع من الحبّ، شعر به كلّ منا نحو الآخر؛ فقد كنت، وقتذاك، أحسّ بفراغ قاتل يملأ جوانبي، وأن عليَّ أن أبحث عمّا أملأ به هذا الفراغ المملّ. وعندما تعرَّفت إلى هذه الفتاة، لم أفكّر في شيء سوى أنها فتاة تتحدَّث معي، وتكاتبني، وتعبِّر لي عن بعض ما تشعر به. إذن، فهي تحبُّني؛ ما في ذلك من شكّ، فاندفعت في حبِّها من غير وعي أو تفكير، وبادلتها المكاتبات، لكنها كانت حاذقة، إذ سرعان ما استغلَّت الظرف المناسب، وأخذت تروِّج، بين صديقاتها ومعارفها وصويحباتها، أخبار هذا الحبّ الذي نشأ بيننا، وتريهنّ رسائلي إليها، وتخبرهنّ أن الزواج سيتوِّج حبَّنا القويّ. وبلغتني كلّ هذه الأنباء فدهشت وعجبت، فأنا لم أفكِّر، أبداً، في شيء اسمه الزواج من هذه الفتاة؛ لعدّة اعتبارات شخصية، وأخرى عائلية. وكلّ ما كنت أحسّ به إنما هو ميل نحوها يدفعني لمحادثتها ومراسلتها، لا أكثر من ذلك، ولا أقلّ.. كنت أريد أن أشعر نفسي بأنني لست وحيداً، في هذه الدنيا، وأن هناك شخصاً آخر يشعر بمشاعري، ويحسّ بإحساساتي، يمكنني أن أكتب إليه وأن أبثّه أشجاني، وأن أنتظر، بعد ذلك، ردوده على رسائلي، حتى أملأ فراغ حياتي، إلى أن جاءتني شقيقتي فطومة تقول:

أنت مجنون، يا سليم؟. ضاقت عليك الدنيا؟ مالقيتش غيرها؟

وسألتها، يومها، في استغراب:

ماذا حدث؟. من هي هذه التي تتحدَّثين عنها؟

- مناني... اللي أنت ناوي تتزوّجها.

- من قال هذا الكلام؟

- هي.. هي تقول فيه لكلّ وحدة... الدنيا كلّها سمعت بحكايتكم، وقُرِئت جواباتكم.. قالت: سليم يحبّني وبيني وبينه جوابات، ووعدني بالزواج..». هو أنت مجنون يا سليم؟ هي هذه امرأة تملأ بيت وتعمّر حوش؟ إذا كنت صحيح ناوي تتزوَّج، قول لنا بس، وأحنا نختار لك البنت اللي تعجبك... بنت أكبر كبيرها نجيبوها لك.

ورَبَّتُّ على كتف شقيقتي في حبّ وإكبار، قائلاً:

اسمعي يا فطومة، أني ما فكّرتش في الزواج حتى الآن... صحيح بيني وبين مناني جوابات وكتابات، لكن مش معنى هذا أني ناوي نتزوّجها... وما دامت الحكاية وصلت هذا الحدّ، أني خلاص تبت ورجعت، من اليوم ما عادش يكون بيني وبينها حتى شيء...

وفعلاً، أوفيت بوعدي؛ فمن يومها لم يعد شيء بيني وبين هذه الفتاة.. قطعت كلّ علاقة لي بها، ولم أعد أفكّر إلّا في العثور على فتاة أتَّخذها زوجة لي وشريكة حياة، إلى أن تزوَّجت مريم، وشعرت نحوها بحبّ.. حبّ عميق قويّ، لم أشعر بمثله من قبل، وأحسست بأن هذه هي الفتاة التي كنت أبحث عنها، منذ سنوات، لتملأ فراغ قلبي وفراغ حياتي القاحلة. كلّ شيء

في مريم كان يعجبني، ويرضيني، ويجعلني أحمد الله، صباح مساء، على إتمام زواجي بها. شيء واحد كان يقلقني، من ناحيتها، ويعذِّبني، ويؤرِّقني، ويحَيِّرني.. هذا الشيء لم أكن أهتمّ به، ولم أكن أحسب له أيّ حساب... هذا الشيء هو الذي ما كنت أعتقد أنه يستطيع أن يسيطر على حياتي كلّ هذه السيطرة، ويعذّبني كلّ هذا العذاب، ويُقلق راحتي كلّ هذا الإقلاق، وينقص من شعوري بالسعادة إلى هذا الحَدّ... وهذا الشيء الذي لا يحسب له أيّ واحد منّا حساباً، ولا يقيم له أيّ وزن، ولا يعيره أيّ اهتمام، عندما يفكِّر في الزواج... في ربط حياته بعجلة حياة إنسان آخر، هو الذي قَلَب حياتي الزوجية المستقرّة السعيدة رأساً على عقب، فجأةً، ودون سابق إنذار، فحوَّلها من نعيم إلى جحيم، ومن سعادة إلى شقاء، ومن راحة إلى عذاب... هذا الشيء هو أن مريم لم تكن متجاوبة معي، فكريّاً وعقليّاً، ووعياً وإدراكاً وتقديراً للحياة وظروفها وتطوُّرها.

لم تكن أفكارها قريبة من أفكاري، ولا آراؤها قريبة من آرائي، ولا نظرتها إلى الحياة قريبة إلى نظرتي إليها. كنت أعيش، بأفكاري، في وادٍ، وهي تعيش، في وادٍ آخر، بآرائها وأفكارها... كنت بعيداً عنها بقدر ما كانت هي بعيدة عني، كذلك. ورغم كلّ ذلك، وفي بداية أيّام حياتي الزوجية، في غمرة الحبّ الأوَّل، في دوامة الفرحة بوجود أنثى إلى جواري، تمنحني جسمها وشبابها وأنوثتها، في تلك الفترة، لم أُقِم كبير وزن للموضوع، ولا أعرته أيّ قدر من الاهتمام، وقلت، في نفسي، (معتزّاً بقدرتي ومقدرتي) أن الوقت وحده كفيل بالقضاء على هذه الحال، وهو كفيل- أيضاً- بأن يقرِّبها مني بمرور الزمن، وبحكم المعاشرة والتأثير.

وانقضى الشهر الأوَّل، وتبعه الشهر الثاني، على زواجنا، ثم توفِّي والدي

بالسكتة القلبية. وفي غمرة موجة الحزن والأسى التي اجتاحتني بعد موت والدي، لم أعد أحسّ أو أشعر بشيء ممّا يحيط بي، ولم أفِق من تلك الصدمة المؤلمة التي أصابتني، والتي اختطفت مني والدي وأفقدتني إياه، دون أن تترك لي فرصة محاولة إنقاذه؛ ما زاد في حزني وأساي ولوعتي، في غمرة موجة الحزن التي ما كنت أتوقَّع حدوثها بمثل تلك السرعة واليسر والسهولة والبساطة، أيضاً؛ إذ لم يكن يخطر في بالي، أبداً، أن أبي الذي يحبّني وأحبّه، يمكن أن يموت، وأن يتغلَّب عليه القدر، أن يقهره الأجل، وينتقل من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، في دقائق... في لحظات، فأنا لازلت، حتى اليوم، أذكر الحادث، وكأنه لم يمرّ عليه سوى ساعات قليلة: كان أبي، ليلتئذ، قد تناول عشاءه، كالمعتاد، وجلس يشرب قهوته، بينما جلست أنا عن يمينه، فوق حشية من الصوف، أطالع إحدى القصص الصادرة حديثاً، وجلست مريم قبالتنا، نحن- الاثنين- تطرِّز مفرشاً للمائدة. وفجأةً، صاح أبي متألِّماً، وهو يقول لي: «أعطني كأس ماء، يا سليم»، وناولته الماء وأنا أسأله: «ما بك، يا أبي؟»، فلم يزد على أن أشار إلى قلبه. ووقفت أمامه حائراً بما أفعل: هل أذهب إلى الدكتور، أناديه؟ وإذا ذهبت، فمن يدري ماذا يحدث بعدذلك؟... أم هل أبقى إلى جواره، ريثما يهدأ قليلاً، ثم أتصرَّف؟ ولم ينقض وقت طويل على حيرتي تلك، حتى شعرت بأبي يتداعى فوق صدري، وأنفاسه تتباطأ، شيئاً فشيئاً، وما هي إلّا دقائق معدودة، حتى كانت روح أبي في العالم الآخر.

هكذا، بكلّ هذه السهولة واليسر والبساطة، مات أبي! وكأنه لم يعش معي ما يقرب من الثلاثين سنة. هكذا، انتقل أبي إلى العالم الآخر، وفارقني إلى غير رجعة، ليتركني وحيداً، أصارع الحياة وتصارعني، دون

سند أو مرشد؛ فقد كنت أعتمد عليه في كثير من أمور حياتي، وكنت أرى فيه قائدي ومرشدي ودليلي. وعندما مات، فقدت كلّ ذلك: فقدت المرشد والقائد والدليل، وتراءت لي الحياة أشبه بالصحراء المترامية الأطراف، لا أوَّل لها ولا آخر، وأنا لا يمكنني أن أسير في طولها وعرضها، إذا لم يكن معي من يرشدني ويوجِّهني، فكان حزني عليه أشدّ كثيراً ممّا كنت أتصوَّر، وممّا كنت أتخيَّل... كان ألمي لفراقه أعظم ممّا كنت أظنّ. وبدأت أعيش في حيرة... في أسى... في حزن، مدّةً تزيد على الخمسة أشهر، لم أشعر خلالها بشيء، ولم أحسّ في أثنائها بشيء. كانت الصدمة قاسية مروّعة، أفقدتني كلّ مشاعري، وتركتني في دوامة لا تتوقَّف أبداً. وعندما أفقت من حالة الذهول التي أُصبت بها. فوجئت بأن كلّ شيء في حياتي قد تغيَّر وتبدَّل... شعرت بأنني لم أفقد أبي، فحسب، بل فقدت الكثير من القيم والمعايير والمعاني، ووجدتني في حيرة من أمري... في دوامة تلفّ بي ذات اليمين وذات الشمال، في عنف وقسوة.

وذات يوم، عدت إلى بيتي، أبحث في جنباته عن قليل من الراحة والهدوء والاستقرار. دخلت حجرة الجلوس، وارتميت على أوّل مقعد صادفني، وأخذت أفكِّر في الحال التي أصبحت فيها، في الوضع الذي وجدتني فيه: لماذا أشعر بالألم يعتصرني؟ لماذا أحسّ بالشقاء يلاحقني؟ لماذا أشعر بالتعاسة تملأ وجداني؟

ماذا جنيت في حياتي حتى أعامَل كلّ هذه المعاملة القاسية الجافّة، وحتى أشعر بهذا الشقاء وهذا العذاب؟ هل مجرّد وفاة أبي تترك في نفسي كلّ هذا القدر من الحزن والألم والأسى؟.

أنا لا أعتقد هذا... لا أصدِّقه... لابدّ أن يكون هناك شيء آخر كامن في نفسي، ويسبِّب لي كلّ هذا الذي أقاسيه، وأحسّه، وأتجرّعه، لم تكن وفاة أبي إلّا مجرَّد يد أزاحت الغبار المتراكم عليه... على هذا الشيء... ما وفاة أبي إلّا آلة رفعت الستارة التي كانت مسدلة لتحول دوني ودون الشعور بالعذاب والشقاء. ومن هنا، بعد أن مُسِح الغبار، ورُفِعت الستارة، بدأت أحسّ بما هو كامن في أعماقي، وأخذت أفكِّر، يومئذ، بمصدر هذا الشقاء الذي أتحدَّث عنه، ولا أستطيع تحديد معالمه: ما أصله؟ ما مبعثه؟ كيف نشأ وكبر في داخلي من غير أن أشعر به قبل زمن؟. وقبل أن أصل إلى النتيجة التي أبحث عنها، دخلت مريم، وجلست إلى جواري، فلم أُعِرها أيّ اهتمام، ولم ألتفت إليها، وكأنني لا أشعر بوجودها. بدت كأنها أدركت ما أعانيه من ألم ممضّ قاتل، فلم تحادثني... ومرّت فترة صمت حزين ثقيل، ثم التفتت نحوي، وعوضاً عن أن تحاول التخفيف من شعوري، وتمسح بيدها بعضاً من أحزاني التي اعتقدت- أوّل الأمر- أنها قد لاحظتها... عوضاً عن كلّ ذلك، بدأت معي حديثاً فارغاً، لم أعِ منه سوى كلمات متقطّعة، لا تتجاوز أن فلانة قد اشترت فستاناً جديداً، وهي تريد مني أن أشتري لها فستاناً مثله، وأن غداً دخلة ابنة جارتنا، وهي ترغب في الذهاب إلى العرس، وتطلب مني أن أعطيها (الرمو)...، وغير ذلك من الأحاديث التافهة، في نظري، والمهمّة في نظرها هي، والتي لا تصدر إلّا عن العقول الجوفاء (الفاضية). أصغيت إليها دون أن أجيبها بكلمة ما... كنت، فقط، أنظر إليها كالأبله أو كالمعتوه، وأستمع إلى حديثها الذي لا يتناسب مع الحالة النفسية التي أعانيها، فأحسّ بالندم، وبخيبة أمل كبيرة... هذه المرأة التي تجلس أمامي... هذه التي تحدّثني، الآن، هي زوجتي... عشيرة عمري... شريكة حياتي... رفيقتي

في هذه الرحلة حتى آخرها... زوجتي هذه بعيدة عني... بعيدة جدّاً... بُعْد السماء عن الأرض... هذه الزوجة التي اخترتها بنفسي... بمحض إرادتي، ولم يفرضها أحد على حياتي، واعتقدت يومها، يوم اخترتها، أنها أقرب الناس إلي، فإذا بي الآن... في هذه الجلسة، ومن خلال هذا الحديث، أحسّ، أنها أبعد المخلوقات عني، وهي قد لا تتمكَّن، أبداً، من أن تتواصل معي، مهما حاولت هي، ومهما حاولت أنا، إذا لم تحاول تنظيف عقلها من السخافات التي تعشِّش داخله... إنها، الآن، لا تهتمّ بما أهتمّ به، ولا تقيم وزناً لهذه الأشياء التي تشغل بالي، وتستولي على جميع تفكيري، في كلّ ساعة من ساعاتي أيّامي ولياليّ... هذه الأشياء تراها هي أشياء تافهة، لا قيمة لها ولا وزن... فهي- مثلاً- ترى أنني أضيِّع وقتي في القراءة وفي المطالعة، وأضيِّع وقتي في الكتابة، وأضيِّع وقتي في حضور الاجتماعات وسماع المحاضرات، والمشاركة في المناقشات، وأرهق نفسي، وأكلِّفها فوق طاقتها بهذه الحركة المستمرّة، التي لا أحصل من ورائها على أيّة مكافأة ماديّة، كما أنها تعجب، ويذهب بها العجب مذاهب شتّى، كلّما رأتني أسهر إلى ساعة متأخِّرة من الليل، أطالع أو أكتب، أو أحضِّر لاجتماع من هذه الاجتماعات التي تعوَّدت عليها.

أشعر، الآن، شعوراً حقيقياً بأن زوجتي بعيدة عني.. بعيدة جدّاً، بعد الأرض عن السماء.. إنها ليست من ذلك الطراز من النساء الذي كنت أبحث عنه، والذي اعتقدت إنها منه، أنها تختلف عني كثيراً.

وأنهت مريم حديثها معي، ذلك الحديث الذي لم أفهمَ، بل لم أعِ منه كثيراً ولا قليلاً، ثم قامت واقفة لتخرج، فطلبت منها أن تجهِّز لي فنجاناً من القهوة. وبينما هي تعدّ القهوة، بقيت أنا وحدي، فعدت إلى الموضوع

نفسه أناقش فيه عقلي، وأقارن بين مريم هذه الواقفة أمامي، الآن، بلحمها ودمها، بطولها وعرضها، وبين الصورة الخيالية التي كوَّنتها عنها، قبل أن أعرفها وقبل أن أتَّصل بها؛ تلك الصورة الذهبية التي رسمتها لها في عقلي... رسمتها لزوجتي في خيالي لقد كانت صورة تشعّ نوراً، وتبعث على الأمل والرجاء، صورة أملاها- ولا شكّ- الحرمان والكبت والبعد عن المرأة.. لقد كانت صورة خيالية، أبعد ما تكون عن حقيقة هذه المرأة الماثلة أمامي، الآن. هذه هي الحقيقة المرّة المؤلمة التي تصيح في وجهي معلنةً جهلي وغباوتي. وفي دوامة هذه الحقيقة القياسية الصارخة، اكتشفت أنني جاهل، واكتشفت أنني غبيّ، فندمت على زواجي.. ندمت على تسرُّعي، ودفعني ندمي إلى الثورة، الثورة على هذه الأوضاع المقلوبة التي تسوقنا إلى حياة لا نرغب فيها، وتجبرنا على أن نمثِّل أدواراً ما كنّا لنقوم بها، وما كنّا لنأتيها لو كنا مخيَّرين، الثورة على هذه القيود والسلاسل التي تكبِّلنا وتقيِّدنا باسم (القدر والمكتوب)، هذه الأسماء التي لا ندرك لها معنى، ولا نفهم أو نفقه لها هدفاً ولا مدلولاً، فلماذا خُلِقت لنا عقول- إذن- إذا كتب علينا إلّا نستغلّ هذه العقول، ولا نشغِّلها ولا نحكِّمها؟ ما فائدتها؟ ما ميزتنا بها؟!!

أليست هذه القيود هي التي تحجز حرِّيّاتنا، وتجعلنا، لا فرق بيننا وبين أيّ حيوان لا يتمتَّع بميزة العقل والإدراك والتعبير؟

شعرت بأنني أثور.. أنقم على وجودي.. على حياتي، لكنني خفت أن يُفتَضَح أمري، عندما تزيد ثورتي، فكبحت جماحي، وعدت أفكِّر بعقلي، فتذكَّرت أنني، قبل بضعة أشهر.. قبل أن يتمّ زواجي بمريم، كنت أتوقَّع أن تكون مريم من هذا الطراز النسائي، من الخامات الجامدات، اللائي

لا يتفاعلن مع الحياة التي يعشنها، ولا يشعرن بوجودهن، ولا يحسسن بشخصيّاتهن، فقرَّرت، عند ذاك، بيني وبين نفسي، أن أحاول المستحيل، أن أعمل كلّ ما في وسعي لرفع مستوى مريم إلى مستواي.. أن أجعل منها إنسانة أخرى.. أجعلها تفكِّر كما أفكِّر، وتحكم على الحياة كما أحكم عليها، وتنظر إليها بالمنظار نفسه الذي أنظر إليها منه. لقد قرَّرت أن أفعل ذلك، لا لأمحو شخصيَّتها واستقلالها الإنساني من الوجود، وأجعلها نسخة مني، طبق الأصل، بل لأجعل منها إنسانة تتجاوب معي وتفهمني، و-من ثَمَّ- تتمكَّن من وضع يدها في يدي لنسير معاً على درب الحياة حتى النهاية. قرَّرت ذلك منذ بضعة أشهر، فقط، فما بالي اليوم أثور وأنقم عليها، ولم تنقضِ سنة واحدة على زواجنا، بعد؟.. هل فقدت قدرتي على إصلاح أمرها؟ هل قمت بأيّة محاولة معها وفشلت فيها؟ ماذا فعلت، حتى الآن، لإصلاح عقلها وتفكيرها، ولإصلاح نظرتها إلى الحياة والأحياء؟ إنني- بدون شكّ- لم أفعل شيئاً من ذلك، حتى الآن، ولم أقم بأيّة محاولة، ولم أجرِّب حظّي معها، رغم مرور كلّ هذه الأشهر على زواجنا، فكيف يحقّ لي، بعد كلّ هذا الإهمال، من جانبي، أن ألومها أو أيْئَس من إصلاح أمرها؟ كيف يجوز لي أن أنقم عليها، وأملأ نفسي بالثورة عليها؟

وعادت مريم تحمل فنجان القهوة، ثم وضعته أمامي، دون أن تفوه بكلمة واحدة، والتفتت إلى الوراء تبغي الخروج من الحجرة، فأمسكتها من يدها مبتسماً، وطلبت منها أن تجلس بجواري لأن لي حديثاً طويلاً معها. وجلست مستسلمة، وفي عينيها نظرة استغراب واستفهام، شحنتها بكل ما في العالم من علامات التعجُّب لهذه الدعوة غير المنتظرة مني. ورشفت

قليلاً من فنجان قهوتي، ثم مرّت فترة صمت بيننا، دون أن أنبس بكلمة، وكأنني أهيِّئها لسماع ما سأقول لها، ثم اعتدلت في جلستي، وقلت:

هل رأيت كلّ هذه الكتب التي تعمر تلك الخزانة؟

وهزَّت رأسها، دون أن تجيب بكلمة.. أشعلتُ أنا سيجارة، وبدأتُ أنفث دخانها، في هدوء، حلقات فوق رأسي، ثم تابعت كلامي:

- إن أقلّ كتاب منها، لا يقلّ ثمنه عن خمسين قرشاً.

- وما دخلي أنا في ذلك؟ لو سمعت كلامي لما أتعبت نفسك في شراء كلّ هذه الكتب... ما فائدتها لك؟

ولم أجبها على سؤالها هذا، بل عدت أقول:

سأعقد بيني وبينك صفقة تجارية مربحة لك: سأدفع لك جنيها كاملاً عن كلّ كتاب تقرئينه منها.

ولم تَفُه بكلمة... فوجئَتْ بكلامي هذا، الذي لم تكن تتوقَّعه، فاكتفت بالحملقة، تارةً في مجموعة الكتب الموضوعة أمامها في الخزانة، وتارةً في وجهي، ولم أمهلها، فعدت أقول:

ما رأيك؟. إنها فكرة جميلة، بل صفقة مربحة، أليس كذلك، يا حبيبتي؟ ثقي بأنني لا أقول لك هذا الكلام هكذا لمجرَّد تمضية الوقت معك، بل إنني أقصد ما أقول، وسأفي لك بوعدي، وأنا على يقين أنك سترحِّبين بالفكرة الجهنَّمية المدهشة التي تفتَّق عنها عقل محبِّك، لأنها ستساعدك- دون شك- على تنمية ثقافتك وتوسيع أفق تفكيرك.

سكتُّ، أنظر وقع كلماتي عليها، بعد أن جعلتها أمام الأمر الواقع... وسكتت هي كذلك، ولم تجب، بل اكتفت بالحملقة وبتصويب نظرها إلى لاشيء. وفي سرعة، قمت إلى الخزانة اختار الكتاب الذي أبدأ به محاولتي أو تجربتي مع مريم، واخترت كتاباً اجتماعياً، عنوانه «كيف تحافظين على زوجك»، يتحدَّث، بأسلوب سهل مبسط، ممتع أشبه ما يكون بأسلوب القصّة، عن الطريقة المثلى التي يجب على المرأة اتِّباعها للاحتفاظ بزوجها إلى جانبها، مدى الحياة، دون أن تترك الفرصة لأيّة امرأة أخرى كي تسلبها إيّاه.. وناولتها الكتاب قائلاً:

– اقرئي هذا الكتاب... ابدئي به... إنه ذو فائدة لكلّ زوجة تريد الاحتفاظ بزوجها... حجمه صغير لا يزيد على (120) صفحة من الحجم المتوسِّط... ستنتهين منه سريعاً..

أخذت الكتاب من يدي، ونظرت إلى عنوانه، فتصفَّحت بعض صفحاته، ثم عادت فأقفلته، وأمسكت به في يدها، والتفتت نحوي تسألني، في خجل:

– لا شكّ في أنك تعرف، يا سليم، أن دراستي محدودة، وهي، أبداً، لا تساعدني على فهم كلّ ما أقرأ.

– ليس المهمّ أن تفهمي ما تقرئين... المهمّ، في المرحلة الحاضرة، أن تقرئي فحسب، حتى تتعودَّي على القراءة، وتصبح لك عادة كعادة الأكل والنوم. كلّ ما يهمّني أن تملئي أوقات فراغك بالقراءة والمطالعة، حتى تصبح لك هواية... إن لكلّ إنسان هواية خاصّة محبَّبة، وأنت تعرفين أن هوايتي الوحيدة هي المطالعة، فاجعلي هوايتك مثل هوايتي، حتى نلتقي، ولو في منتصف الطريق، أم ترى لك هواية أخرى تميلين إليها؟

- لا- والله- ليست لي أيّة هواية... إنما مشكلتي في الفهم.

- يا حياتي، يجب ألّا تفكّري في مشكلة الفهم. إن الطفل عندما يبدأ الكلام يقول كلمات، ويردِّد جملاً، هو لا يفهمها، ثم - بالتدريج... خطوة خطوة- يصبح قادراً على فهم الكلمات التي يقولها، وبردِّدها. يكفي أن تفهمي، الآن، (50 %) ممّا تقرئين.

ولم أزد أيّة كلمة أخرى... اكتفيت بأن ربَّتُّ على ظهر يدها، ثم قبَّلتها قبلة على وجنتها، وخرجت من البيت. يومها، لم أعد إلّا في ساعة متأخِّرة من الليل، وعندما وجدت نور حجرة النوم لا زال مضاءً، شعرت بالفرح يغمرني، فدخلت الحجرة متسلِّلاً، وإذا بي أجدها نائمة والكتاب إلى جوارها، فتناولته وقرأت رقم الصفحة التي وصلت إليها، فإذا هي الصفحة (11). وهنا، شعرت بالسرور... بالفرح... بالسعادة.. بنشوة الانتصار.. لقد وُفِّقت في أوَّل محاولة قمت بها مع مريم.. لقد انتصرت في معركتي الأولى مع القيود التي تقيّد عقل زوجتي، وتفكيرها.. ما أغباني! لماذا لم أبدأ هذه المحاولة منذ زمن؟. ما الذي أخَّرني حتى اليوم؟. واقتربت منها أقبِّلها قبلة خفيفة على جبينها، وكأنني أحاول أن أكفّر عن ذنوبي إزاءها، بقبلتي تلك.. عن جريمتي التي ارتكبتها في حقّ مريم.. ولم توقظها القبلة، فتمدَّدتُ على السرير، إلى جوارها وسحبت الغطاء. نمت، وأنا أشعر براحة كبيرة تغمرني، وأحسّ بنشوة الانتصار تحيط بي وتغرقني في بحورها. لقد انتصرت.. لقد حقَّقت بعض الشيء.. لقد بدأت أسير في الطريق القويم.. إن مريم المظلومة ترغب، صادقةً، في أن ترفع من مستواها العقلي والفكري.. إنها تريد أن تسمو بتفكيرها عن مستوى تفكير الأخريات.. أن تغيِّر من نظرتها إلى الحياة والأحياء، وأن

تنظر إليها من خلال منظار آخر غير المنظار الذي ألبستها إيّاه الحياة، والذي تعوَّدت أن تنظر به إليها. حقّاً، إن للمرأة تربيتَيْن: تربية في بيت والديها، وأخرى في بيت زوجها، فلماذا لا يحاول كلّ زوج منّا أن يفعل شيئاً مع زوجته، مادامت قابلة للتفاعل والتطوُّر؟ وحمدت الله، في ليلتي تلك، على نصيحة ذلك الصديق الذي دلَّني، ذلك اليوم على أسرتها، وقلت في نفسي، إنني بقليل من الجهد.. بقليل من التوجيه.. بقليل من الصبر، أستطيع أن أخلق من مريم أمرأة أخرى.. امرأة كما أريدها أنا، وكما كنت أتصوَّرها في خيالي.. امرأة تعيش معي حياتي.. تحسّ بإحساساتي، وتشعر بمشاعري.. تصارع معي الحياة، وتتحدّى معي العادات والتقاليد والخرافات.

ونمت ليلتي وقلبي مفعم بالنشوة، وكنت، طوال ليلتي، أحلم أحلاماً حلوة لذيذة عذبة، فقد رأيتني، أنا ومريم، نسير معاً في طريق هوائي أيدينا متشابكة.. كنا، عندها، لا نسير على الأرض بأقدامنا، ولا نطير في السماء بأجنحة كما تطير بقيّة الطيور التي نعرفها، بل نسير، هكذا، في الهواء.. نسير على أقدامنا، تماماً، كما نسير على الأرض، لكن أقدامنا كانت لا تلامس الأرض، وكانت الورود والأزهار تحفّ بنا من جانبَيْ طريقنا الهوائي، الذي كنا نسير فيه.

استيقظت من نومي العذب اللذيذ، فطارت الأحلام، وفتحت عينيّ لأجد ضوء الصباح وأشعة الشمس تغمر الغرفة، ومريم جالسة على حافّة السرير، بجواري، تنظر إلى وجهي نظرات ذات معنى، وكأنها تهمّ أن تقبّلني، لكن شيئاً ما كامناً في أغوار نفسها.. متغلغلاً في روحها، تحسّ به، يمنعها من أن تبدأني القبلات.. فأنا لا أذكر، مرّة واحدة، منذ أن

تم زواجنا، أن مريم بدأتني بالتقبيل.. كانت، دائماً، تنتظر أن أبدأ أنا، وحتى بعد أن آخذ منها القبلة الأولى، فهي لا تتجرّأ، أبداً، على مبادلتي التقبيل. حاولت كثيراً أن أنتزع من نفسها هذا الشعور بالرهبة والخوف والحشمة، التي لا مكان لها بين الأزواج، وقلت لها، مرّات عديدة: «أنا لا أكتفي بأن أرى فيك امرأة واحدة فحسب، لكنني أريد أن أراك نساء متعدِّدات.. أريد أن أرى فيك الزوجة والصديقة والخليلة، أيضاً.. أريد أن أراك تتزيَّنين لو كما لو أنك لا تزالين في أيّام زواجنا الأولى.. كأننا لا نزال في (الأربعين)، ولم ينقضِ على زواجنا كلّ هذا الوقت»، غير أن أقوالي هذه كانت تذهب كلّها أدراج الرياح، دون أن تؤثِّر فيها أو تهتمّ بها. أنا متأكِّد من أن الذنب، في ذلك، ليس ذنبها هي، إنما هو ذنب البيئة.. ذنب المحيط.. ذنب العقلية التي تسيطر علينا جميعاً، والتي تقول لنا، في سخافة وحمق: «إذا تَمّ الزواج.. إذا انقضت أيّامه الأربعون الأولى، لم يعد ما هناك يجعل أحد الزوجين يتجمَّل للآخر».

ولاحظت مريم نظراتي الملتهبة المصوَّبة إليها، فأسبلت عينيها، حتى تداري النظرة العطشى التي كانت تنظر بها نحوي، وحاولت أن توهمني أنها كانت مجرَّد نظرة عفوية غير مقصودة، ولم أشأ أن أربكها، فلم أسألها شيئاً، ولم أناقشها في شيء، بل اكتفيت بأن أخذت منها قبلة الصباح المعتادة، التي طبعتها، في خفّة ولين، على جبينها، وقمت مسرعاً إلى الحمّام، ثم جلست معها نتناول وجبة الإفطار، على صوت المذياع الذي كان يرسل أنغام أغنية مرحة خفيفة من أغاني الصباح، جعلتني أتابع، باهتمام، كلماتها وموسيقاها. وتوقَّعت أن يدور حديث مريم، ذلك الصباح، حول ما قرأته من مواضيع الكتاب، خاصّة أني أعلم أن في

الكتاب أشياء كثيرة يمكن أن يدور حولها حديث ونقاش، وأن في الكتاب من الجمل والمفردات ما لا يمكن لامرأة مثل مريم أن تفهمها أو تعيها.. كنت أنتظر منها أن توجّه إليّ بعض الأسئلة في المواضيع التي لم تفهمها، لكنها فاجأتني بأسئلة سخيفة رعناء، لا تصدر إلّا عن عقل جامد، وفكر ضحل، ونظرة إلى الحياة ضيِّقة.. فاجأتني بأسئلة نسائية لا تدلّ إلّا على الضحالة والسخف والفراغ.. سألتني:

– ماذا تريد أن يكون غداؤنا اليوم؟.

ولم أجبها بكلمة.. اكتفيت بالنظر إليها في سخرية، قبل أن أقول:

منذ متى كنت أقترح عليك الغداء الذي أريدك أن تجهِّزيه؟

فعادت تسأل:

هل ستذهب لزيارة خالتك، اليوم؟ إذا ذهبت إليها فلا تنسَ أن تبلِّغها سلامي.

ولم أجبها هذه المرّة، فاستمرَّت في توجيه أسئلتها (البائخة) التي ما كنت أفكِّر أبداً، في سماعها من زوجتي أنا.. أنا الرجل الذي كان لا يفكِّر في الزواج، إلّا من امرأة تكون على طبعه ومن رأيه.. تتجاوب معه، وتفهمه، وتسير معه، عبر طريق الحياة الطويل، في جوّ من التفاهم وتقارب الآراء والأفكار، وبعد كلّ ذلك، أسمع هذه الأسئلة التي لا أريد أن أسمعها من زوجة، لا أنظر إليها على أساس أنها أنثى، بقدر ما أنظر إليها على أساس أنها إنسانة.

كان ذلك اليوم يوم جمعة، فلم أغادر البيت مبكِّراً، بل أرسلت الخادمة، فابتاعت لي جريدة الصباح، وجلست أقرؤها في ركن من حجرة الجلوس. كانت الجريدة تتحدَّث عن أحداث العالم التي تشغل الرأي العام العالمي، في ذلك الوقت.. استغرقت في القراءة، غير أن مريم لم تشعر باستغراقي ذاك، فحاولت أن تستمرّ في ثرثرتها وحديثها الفارغ التافه، وأسئلتها السطحية التي لا تدلّ إلّا على الفراغ والتفاهة، رغم أنني نصحتها، أكثر من مرّة، بألّا تحاول قطع مطالعاتي، مهما كانت الحال. وانتهيت من الجريدة فرميتها جانباً، والتفتّ إلى مريم أسألها وأناقشها، محاولاً أن أصرف تفكيرها عن الأمور التافهة، والأشياء السخيفة، فقلت:

إن العالم على فُوَّهة بركان، إن الحرب الباردة، بين الشرق والغرب، أوشكت على الانتهاء، لتعقبها- لا قَدَّرَ الله- حرب ساخنة، لا تُبقي ولا تذر. ونظرت مريم نحوي نظره تساؤل وبَلَه وجمود، وكأنها تسمع كلماتي باللّغة العبرية التي لا تعرفها، أو كأنها انقلبت إلى أحد حواريّي السيِّد المسيح، الذين يفغرون أفواههم كلّما سمعوه ينطق بمثل من أمثاله، أو يلقي بحكمة من حِكَمه. وبعد فترة صمت لم تطل، قالت باستغراب:

إن البركان هو جبل النار.. أليس كذلك؟؟

- أجل، هو ذاك.

- وهل يمكن لأحد أن يجلس فوق جبل نار؟

- طبعاً لا، وإلّا احترق لساعته.

- إذن، كيف تقول أن (عالِماً) على فوهة بركان؟ كيف لا يحترق هذا

الرجل المسكين؟. وهل العلم يمنع صاحبه من الاحتراق، ولو كان يجلس على فوهة بركان؟ ثم ما علاقة الحرب بالعلم؟ وهل يمكن أن تكون هناك حرب باردة على وشك الانتهاء، وحرب ساخنة توشك أن تعقبها؟!! إنني لا أكاد أفهم شيئاً ممّا تقول، يا سليم!!

ونظرت إليها نظرة عطف وحنان وحبّ، نظرة مواساة ورحمة.. مسكينة! إنها لا تفقه معنى الكلمات، ولا تعي ما تسمع من جمل وأقوال. إن تفكيرها بعيد جدّاً عن مستوى ما تسمع. إنها إنسانة تعيش في القرن العشرين، لكن عقلها.. فهمها.. إدراكها.. وعيها، كلّها من مخلَّفات القرن الأوَّل الميلادي. شعرت بعطف عليها، وأحسست بأنها إنسانة مغلوبة على أمرها، وهي في حاجة إلى من يساعدها ويساندها ويأخذ بيدها، فيسير بها عبر الحياة. شعرت بفيض من الحنان نحو هذه المخلوقة المسكينة التي حكمت عليها الأيّام بأن تكون ضحيّة للأيّام، وامتلأ قلبي بالرحمة والشفقة، فمددت يدي أمسح بها على ظهرها، في لطف ومواساة، وأنا أقول:

– العالم، يا مريم هو هذه الدنيا.. الحياة التي نعيشها.. وعندما قلت العالم على فُوَّهة بركان، فأنا أقصد أن الدنيا كلّها على أبواب حرب عالمية ثالثة، ولو قُدِّر وقامت هذه الحرب، فستكون حرب إبادة، لا رحمة فيها ولا شفقة، ولا تكون نتيجتها غالباً ومغلوباً، بل الغالب والمغلوب كلاهما في النار.. في الجحيم.

– عجيب!! يحاولون إشعال نار حرب جديدة؟ ألّا يكفيهم ما قاساه الناس من ويلات الحرب الماضية؟

- إن الساسة الكبار الذي يمسكون بزمام العالم، لا يفكِّرون في مصالح البشر، لكأنهم ليسوا من طينة البشر، إطلاقاً.

- ومن هم هؤلاء المجرمون المجرَّدون من جميع القيم الإنسانية؟

- إنهم كثيرون، أمثال (ديجول)، العجوز الذي يحاول أن يسترد لفرنسا شيئاً من ماء وجهها، وشيئاً من شرفها الذي ديس تحت أقدام جنود (هتلر)، وتحت أقدام جنود (بيان بيان فو)، ويراق، الآن، تحت أقدام أبطال الجزائر العربيّة، في أرض الجزائر الثائرة. هذا الجنرال العجوز، الذي يحاول أن يفعل ذلك، فيفجِّر القنابل الذرِّيّة في صحراء، لا ناقة له فيها ولا جمل، وكلّ همِّه إدخال الرعب في قلوب المكافحين في أرضهم وحرِّيَّتهم، دون تفكير في نتائج أعماله الحمقاء، وسخافاته الرعناء، التي لا يقدم عليها إلّا من تجرَّدَ من الإنسانية، وتجرَّد من الضمير، وتجرَّد من الشرف، مثله مثل أولئك اللائي يبعن أجسادهن في سوق الرقيق، حين يحاولن صبغ وجوههنّ بمختلف الألوان، حتى لا تظهر حقيقتهنّ، بعد أن خسرن الشرف والمكانة والخُلُق.

وهنا، حملقت مريم في وجهي كالبلهاء، وكأنها تسمع كلاماً لأوَّل مرّة في حياتها، وإن كان قد أثَّر في نفسها: فهو لم يؤثِّر في عقلها، فقامت تجري إلى المطبخ لتراقب الغداء الموضوع على النار. وتمنَّيت، في نفسي، لو أنها لم تقم، لو أنها جلست معي طوال ذلك اليوم تناقشني وأناقشها، أو- على الأقلّ- أتحدَّث معها في غير ما تعوّدت أن تحصر أحاديثها فيه من المواضيع، تمنَّيت ذلك، لكن- كما يُقال- «ما كلّ يتمنّى المرء يدركه».

واستمرّت حياتنا تجري وسط هذا البحر، وعلى أمواجه الصاخبة، تارةً

تطفو، وتارةً تغوص.. تارةً تهبّ عليها الريح رخاءً، فتسير في يسر وسهولة واندفاع، وتارةً تعاكسها الريح فتترنَّح ذات اليمين وذات الشمال، وهي تكاد تنقلب، في بعض الأحيان. غير أنني، أنا الذي عزمت على أن أعمل المستحيل لكي أجعل من مريم إنساناً جديداً، لم أقف مكتوف الأيدي في يوم واحد من الأيّام، بل كنت أدفع مريم إلى الأمام، إذا أصبحنا، وأدفعها إلى الأمام إذا أمسينا، وأدفعها إلى الأمام، بين كلّ صباح ومساء، لكنني كنت كلّما أمسكت بيدها، محاولاً رفعها إلى فوق.. إلى أعلى، أشعر بأن قوّة خفيّة تجذبها إلى أسفل. وكلّما حاولت انتشالها من هوّة عقلها وتفكيرها، أحسست بأن شيئاً يغوص بها إلى الأعماق.. أعماق تلك الهوّة السحيقة. وذات يوم، بعد مضيّ أكثر من شهر على حكاية الكتاب والقراءة، كنا جالسَيْن في البيت، بعد أن تناولنا وجبة الغداء، فسألتها:

– كم كتاباً قرأتِ، حتى الآن؟، لا شكَّ في أن لك ديناً كبيراً في عنقي.. وابتسمت مريم ابتسامة صفراء، ولم تَفُه بكلمة، ففهمتُ، على الفور، معنى ابتسامتها تلك، فشعرت بخيبة أمل كبيرة تعصر قلبي، وتسحق كياني ووجودي، غير أنني تجاهلت واقعي ذاك.. تجاهلت موقفي المزري.. تجاهلت الطعنة النجلاء، وخيبة الأمل الكبيرة التي أحسست بها، وتظاهرت بمظهر الغبي، فعدت إلى القول:

لا تبتسمي يا حبيبتي، أنا على أتمّ استعداد للدفع. لقد وعدتك، ولا أريد التراجع في عهدي أو نقض وعدي. إننا في نهاية الشهر، وأمس، فقط، قبضت مرتَّبي، ويجب عليَّ أن أدفع لك، الآن قبل أن يتبخَّر المرتَّب، ويدخل الأفواه التي تنتظره على أحرّ من الجمر.

– أنا لم أقرأ شيئاً كثيراً، يا سليم. شغلتني مشاغل الحياة عن القراءة. أنت تعرف أن الحاجة عويشة قد زوَّجت ابنتها خلال هذا الشهر، وأن خديجة الورفلية أعلنت خطوبة ابنها، وأن.. وأن... وهكذا، تجد أنني لم أبقَ كثيراً في البيت؛ لذا لم أتمكَّن من القراءة.

– أنا لا أريد أن أحاسبك الآن.. قولي كم كتاباً قرأت، وهاك ما تستحقّين. وفعلاً، أدخلت يدي في جيبي استعداداً للدفع، غير أنها سارعت تقول في شيء من الخجل والارتباك:

لم أقرأ سوى كتاب واحد.. الكتاب الأوَّل، فقط.. وحتى هذا، لم أفرغ منه بعد.. لم أقرأ منه سوى نصفه، فحسب.

نطقت بهذه الكلمات، ثم صمتت، فصمتّ أنا كذلك.. لم أقلّ شيئاً، بل أخذت أفكر: ما هو الموقف الواجب عليَّ اتِّخاذه؟. هل أثور؟ لا.. لأن الثورة من شأنها أن تذهب بكل أمل لي في الإصلاح.. إصلاح المستقبل الذي لا يمكن أن يتوقَّف على هذه الحادثة وحدها. هل أسكت؟ إن السكوت معناه ثورة داخلية جامحة تهدم كيان الإنسان الداخلي، وتطيح بمعنويّاته. هل أرضى بالهزيمة؟ هل أرضى بالفشل؟ إن كلّ الأمال والقصور التي أمّلتها، وشيّدتها قد تهدَّمت وتبخَّرت، بفعل مريم.

ذات يوم، ظننت أنني انتصرت على جمود عقل مريم، وأنني حقَّقت بعض الانتصار، وقطعت أوَّل خطوة في طريق التقائي بمريم.. بزوجتي.. برفيقة حياتي، وإذا بي، الآن، أكتشف أنني كنت واهماً.. مخدوعاً مغرَّراً بي، وأن مريم هذه أبعد الناس عني بعقلها وتفكيرها، وإن كانت ألصقهم بي، بجسمها وأنوثتها.

وفجأةً، تذكَّرت أن يدي لا تزال في جيبي، تبحث عن ورقة مالية، فأسرعت أسحبها بورقة من ذات الجنيه.. ناولتها مريم، وأنا أبتسم ابتسامة صفراء، لا معنى ولا مغزى لها، سوى تغطية شعوري بالخيبة والفشل، وقلت:

- خذي هذه الورقة، مكافأة على نصف الكتاب الذي قرأ به، آمل أن تنهيه عاجلاً، حتى أشير عليك بغيره.

ولم تمدّ يدها لتأخذ الجنيه، بل نظرت إليه، من بعيد، وقالت:

- احتفظ بالجنيه معك، فأنا أريد أن أشتري (شال) مثل الذي اشترته الخالة فاطمة زوجة عبد الحميد محمود.

وهنا، فاض غضبي، وتأجَّجت ثورتي، فنظرت إليها نظرة احتقار وازدراء، بعد أن شعرت بأنها بدأت- فعلاً- تهوي إلى القاع.. بدأت طريقها، في نظري، نحو الهاوية السحيقة التي ابتلعت ومازالت تبتلع غيرها من بنات جنسها، كلّ يوم، بالمئات. خَطَتْ، في نظري، أوَّل خطوة في طريق الابتعاد عني أكثر ممّا هي بعيدة الآن، وأجبتها، في تأنيب وتحقير:

يؤسفني أن تكوني سطحية إلى هذا الحَدّ، يا مريم.. ظننتك أرقى تفكيراً وإدراكاً ممّن مثلك من النساء، وإذا بك وبقولك هذا تثبتين لي أنك لا تختلفين عن أيّة واحدة من مجموعتكنّ الحقيرة. حقاً لقد خُذِلت وغُرِّرت فيك، بل لقد كنت مغفَّلاً- حقّاً- يوم اعتقدت أنك تمتازين عنهنّ بأيّة ميزة من الميزات الإنسانية. كنت مغفَّلاً يوم ظننت أنني أستطيع انتشالك من الهاوية التي ابتلعت غيرك من نساء هذا المجتمع المسكين.

وغادرت البيت، في ذلك اليوم، ناقماً ساخطاً ثائراً، أبحث عن شيء.. أيّ شيء أخفّف به من لهيب النيران التي أحسّ بها تشتعل في داخلي، وتحرق كياني، وتذيب وجودي. غادرت البيت، وسرت في الشارع على غير هدى. ومن يومها، عرفت الخمرة، بأنواعها، وخَبِرتها، بأشكالها، حتى أصبحت (مدمن خمر)، من الدرجة الأولى، كلّ ذلك في سبيل أن أنسى شدّة خيبتي، ومن أجل أن أتخلَّص من الشعور بالفشل، الذي أخذ يعذِّبني. ورغم ذلك، لم أيْئَس من مريم.. لم أيْئَس من إمكانية إصلاح مريم وتنظيف عقلها وغسل فكرها. عدت إلى البيت في ساعة متأخِّرة من الليل، ودخلت حجرة نومي، لأجد مريم نائمة في فراشها، فأخذت أنظر إليها نظرة فيها كثير من الازدراء والاحتقار، وتمدَّدت إلى جوارها، دون أن أشعر بأيّة حرارة أو رغبة مني بها. وفي الصباح، خرجت مبكِّراً، قبل أن تستيقظ هي من نومها، وقضيت يومي في زحمة العمل، لكنني كنت أحسّ، بين الحين والحين، بشيء يخزني، بمَثَل وخز الإبر، وكنت أحسّ، كلّما خفَّت عني زحمة العمل، بمعركة عنيفة تدور في رأسي؛ معركة بين عقلي وعواطفي: أنا إنسان ومن حقّي أن أعيش إنسانيّتي.. أن أحسّ بوجودي.. أن أشعر بكياني، وأنا لا يمكنني أن أحسّ أو أشعر بشيء من هذا، إلّا إذا علمت وأدركت أنني أعيش إنسانيّتي. أنا إنسان يريد، وفي إمكانه أن يحقِّق لنفسه ما يريد.. إنسان يفكِّر وفي إمكانه أن يصل، بتفكيره، إلى نتائج إيجابية تساعده على الحياة. عقلي يقول لي: إنك إنسان،وكلّ إنسان حرّ، ولا شيء يحدّ من حرّيّة الإنسان إلّا حدود حرّيّة الآخرين.. وأنا لم أفكِّر، أبداً، في الاعتداء على حرّيّة أيّ إنسان آخر، إنما، فقط، أريد أن أعيش في حدود حرِّيَّتي التي اكتسبتها، بوصفي إنساناً لي عقل، ولي إرادة، ولي ملكة التفكير والتمييز.

هذا ما يقوله لي عقلي، لكن واقعي الذي أعيشه غير هذا، وحياتي التي أحياها عكس كلّ هذا، فأنا، تماماً، كغيري من أفراد هذا المجتمع، أعيش في قوقعة مغلقة، قوقعة من صنع العادات والتقاليد والسخافات، وقد حاولت، من جهتي، أن أكسر هذه القوقعة، وأحطِّم تلك التقاليد، وأخرج إلى العالم.. إلى الحياة الإنسانية بفضل مساعدة زوجتي لي، وإذا بي اكتشف أن زوجتي التي ظننت، ذات يوم، أنها ستكون عوناً لي في التغلُّب على ما يعترض طريقي ويحيل حياتي إلى ظلام ووحشة، وبفرض عليّ أن أعيش داخل هذه القوقعة.. اكتشفت أن زوجتي هي غطاء القوقعة.. هي سدادتها.

وعقلي يقول لي إنني إذا أردت أن أعيش حياتي كما أريد أن أعيشها، فمن حقّي أن أتخلَّص من جميع العراقيل التي تعترض طريق سيري، وأوَّل هذه العراقيل زوجتي.

هذا ما يقوله لي عقلي، لكن عواطفي تأبى هذا، وتستنكره بشدّة.

زوجتي، ماذا جنت؟ ماذا فعلت؟ ما ذنبها؟

إنها ضحيّة مثل غيرها من الضحايا الكثيرة، مثلي أنا، تماماً، فكما ذهبتُ، أنا ذهبَتْ، هي الأخرى، ضحّية لشيء، لا يد لنا فيه، ولا سلطة لنا عليه، فما الذي يدفعني للنقمة عليها، ومحاولة التخلُّص منها، بعد إلقاء كلّ العبء على كاهلها؟ ماذا فعلت من أجلها؟ ماذا فعلت في سبيل فكّ الأغلال التي تكبِّلها وتقيِّد عقلها وتفكيرها؟ إنني، حتى الآن، لم أفعل شيئاً إيجابياً ذا أثر، يمكنني أن أحسّ معه بأنني أدَّيت واجبي حيال زوجتي.

كانت هذه المعركة تملأ رأسي، وتستولي على تفكيري، فلم أتمكَّن معها من الاستمرار في العمل، فسارعت في الانصراف من المكتب، وكان أوّل ما فعلته، بعد خروجي من العمل، أن اتَّجهت إلى أوّل محلّ تجاري صادفني، وابتعت منه (الشال) الذي أوصتني عليه مريم، مساء يوم أمس، وعدت إلى البيت قبل موعدي المعتاد، فسلَّمت (الشال) إلى مريم، دون أن أفوه، ولو بكلمة واحدة، ومن غير أن أناقشها في الموضوع. وكانت في رأسي فكرة جديدة، عزيز عليّ تنفيذها، مؤمّلاً أن تساعدني على تحقيق ما صمَّمت عليه من إعادة محاولة تنظيف عقل مريم وغسل فكرها.

فمنذ ذلك اليوم، لم أعد أحادث مريم في موضوع الكتب والمطالعة، ولم أعد ألحّ عليها في القراءة، بل اكتفيت بأن أُظهر لها شدّة حبّي وشغفي بالمطالعة. وبدأت أطالع في كلّ وقت، وأطالع في كلّ مكان، وأطالع كلّ شيء.. كلّ ما أجده أمامي من شيء مكتوب، أقرؤه، حتى مجلّات الأطفال المصوَّرة، وحتى في أوقات الأكل، كنت لا أترك الكتاب من يدي، وهدفي من ذلك هو أن أشعرها بالغيرة من الكتاب، وأن أريها أن الإنسان لا يعيش ببطنه فقط، لكنه يعيش بعقله وبفكره، أيضاً، وأن الإنسان الذي يحتاج لإشباع بطنه حتى لا يشعر بالجوع، كذلك يحتاج لإشباع عقله حتى لا يحسّ بالفراغ. وأثمرت هذه الفكرة، فبينما كنت ذات يوم غارقاً في مطالعة كتاب من كتب الدكتور (طه حسين)، جاءتني مريم تسألني:

ماذا تقرأ، يا سليم؟ حقّاً إنك مدمن مطالعات. لست أدري ماذا تستفيد من كلّ هذا الذي تقرؤه؟!!. ووجدتها فرصة مناسبة لألقي عليها محاضرة في فائدة القراءة، فأجبتها:

إنني أطالع كلّ شيء أجده أمامي من الكتب. إن المطالعة، يا مريم، هي غذاء القلوب والأرواح والأفكار، فكما تحتاج أجسادنا للغذاء، لتبني خلاياها وتجدِّدها، تحتاج أرواحنا وأفكارنا للغذاء، لتبني نفسها، وإلّا أدركها الهرم، وسارعت إليها الشيخوخة. ليتك تقدِّرين فائدة المطالعة؟

وقبل أن تجيبني بكلمة ما، سمعت طرقاً على الباب، فسارعَتْ إليه، وجلست وحدي أفكِّر: هل يفيد هذا الدرس؟ هل يأتي أُكُله؟ هل يمكنه أن يغيِّر من عقليّة مريم وفكرها؟ لكن الأيّام، بعد ذلك، كذَّبت ظنوني، فقد انصرفت مريم عن مناقشتي في أهمّيّة الكتب التي أقرؤها، وفائدتها، وبدأت تتَّبع معي طريقة أخرى. كانت تجلس إلى جواري كلَّما وجتني أطالع كتاباً ما، وتظهر اهتمامها بما أقرأ، ثم تسألني، في بعض الأحيان:

ماذا تقرأ يا سليم؟.

- قصّة (كذا).

- أسمعنيها، إذ كانت قصّة ممتازة.

وأرفع صوتي حتى تسمعني، وأنا أشعر بفرحة كبيرة تغمرني، وأعتقد، بيني وبين نفسي، أنني انتصرت شيئاً ما، وأحاول أن أقرأ لها قراءة هادئة رصينة حتى تتمكَّن من متابعتي، بل أحاول أن أقرأه بصوت تمثيلي، زيادة في ربطها بي، غير أنني، دائماً، كنت ألّاحظ عليها عدم الاهتمام بمتابعة ما أقر، وانصرافها عني، وتفكيرها في أشياء أخرى، فأحاول أن أجلب انتباهها، فأسألها:

ماذا يقصد بطل القصّة بهذا الكلام؟

- أيّ كلام؟

- هذا الذي كنت أقرؤه.. الفقرة الأخيرة، بالذات.

- متأسِّفة.. لم أنتبه إليك. كنت أفكِّر في أشياء أخرى. أعِدْ قراءتها، من فضلك.

وهنا، كنت أدرك أن عقلها ليس معي، وأنها تسبح بعيدة عني.. أن مسافة شاسعة تفصل بيني وبينها.. أنها تعيش في جوّ آخر، داخل قوقعة محكمة الإغلاق، لا يمكن لصوتي أن يخترقها ويصل سمعها، وهو إن اخترقها ووصل سمعها لا يصل، أبداً، إلى عقلها وفكرها.. وأحسّ بالخيبة.. أحسّ باليأس.. أحسّ بالندم يأكلني، فألوم نفسي وأصفها بالتغفيل تارةً، وبالتسرُّع تارةً أخرى. لو أنني تأنَّيت.. لو أنني ترويت.. لو تعقَّلت.. لو انتظرت قليلاً، لما وقع لي ما وقع اليوم، لكان وضعي وضعاً آخر.. لأخذت حياتي وجهة أخرى. لكن، ماذا يفيد الندم الآن، وزوجتي حامل؟ لقد فات الوقت، وانقضى الأمر، وانتهى كلّ شيء، وليس أمامي سوى أن أحاول بكلّ ما في وسعي، وبكلّ ما في استطاعتي، أن أزيح قليلاً من التراب المتراكم على عقلها وفكرها ونظرتها إلى الحياة. ورأيت أن أحسن طريقة لتحقيق ذلك، هو أن أستمرّ في المطالعة.. أطالع كلّ شيء، وفي كلّ وقت، وفي كلّ مكان. وكانت هي تطلب مني، في بعض الليالي، التي أطالع في أثنائها وأنا في الفراش، أن أُسمِعها ما أقرأ، فأرفع صوتي في هدوء، وأقرأ لها جملة جملة.. كلمة كلمة، محاولاً أن أجعل تفكيرها مرتبطاً بما أقرأ.

كثيراً ما فعلت ذلك، لكنني، في كلّ مرة، كنت أكتشف أنها غارقة في نوم عميق، قبل أن أنتهي من قراءة الصفحات الأولى، فأنظر إليها، وهي نائمة،

نظرة أسف وحسرة، فيها كثير من اليأس وكثير من الرثاء، وفيها- أيضاً- كثير من الشفقة.. الشفقة عليها هي، على هذه المرأة التي تحاول أن تبتعد عني، كلّما حاولت أنا الاقتراب منها.

وهكذا، فشلت في كلّ محاولاتي معها.

فشلت في تحبيب القراءة إليها.

فشلت في أن أجعلها هاوية مطالعة.

ملأت المنزل بالكتب والجرائد والمجلّات: المصورة وغير المصوَّرة، العربيّة وغير العربيّة، أملاً في إغرائها بحبّ المطالعة، لكن دون جدوى.

جعلت من نفسي معلِّماً لها، ومرشداً، وموجِّهاً، فلم أُوَفَّق في أداء رسالتي هذه حيالها، كان عقلها متحجِّراً جامداً، لم تفد محاولاتي في جعل عقلها مرناً ليِّناً قابلاً للتفاعل معي ومع الحياة.. كنت أحاول أن أنتشلها من الهاوية التي أراها مساقة إليها معصوبة العينين، وأنتشلها من الحضيض الذي أراه كُتب عليها، لكنني فشلت.. فشلت في كلّ محاولاتي، ولم تجدِ أيّة محاولة معها بأيّ نفع أو فائدة.. لم يَلُحْ في أفق حياتها أيّ خيط من الأمل يجعلني أستمرّ في التشبُّث به إلى آخر لحظة، لعلَّني أُوَفَّق في آخر الأمر.

قد تقول إنني لم أقم بشيء لإصلاح عقل مريم وتغيير فكرها، غير محاولتي تحبيب المطالعة إليها، ولا شيء غير ذلك، وأن الواجب كان يُلزمني بأن أجرِّب معها طرقاً كثيرة أخرى.

لكن، تأكَّد من أني جرَّبت طرقاً كثيرة غير طريقة المطالعة: جرَّبت جَرّها

للخروج معي في فسحات صغيرة وحضور بعض الاجتماعات والندوات التي يعقدها الأصدقاء والمفكِّرون، وجَرَّبت أن أصحبها معي إلى السينما لمشاهدة بعض الأفلام الممتازة.. جرَّبت أن أجعلها ترتبط بصداقات مع بعض السيِّدات المثقّفات المتحرِّرات.. كلّ ذلك جرَّبته معها، وكلّ ذلك فشل، ولم يأتِ بنتيجة ما، فركَّزت على المطالعة والقراءة، ظنّاً مني أن سبب فشلي في النواحي الأخرى يعود إلى شعورها بالنقص أمام الآخرين، فتحاول الانزواء والابتعاد، واعتقاداً مني أن المطالعة، وحدها، هي الوسيلة العملية لتفتيح ذهنها وتغيير نظرتها إلى الحياة، والناس، والعالم. وعندما فشل كلّ ذلك، بدأت أحسّ بشيء.. بحاجز.. بفاصل أخذ يفصل بيني وبينها، وبياعد ما بيننا.. كنت أريدها زوجة مثالية، بالمعنى الكبير لمفهوم الزوجة، وإذا بي أجدها مجرَّد أنثى في الفراش وخادمة في المنزل. كنت أراها إنسانة لها عقل وروح وإرادة، وإذا بي أجدها مجرَّد جسد تجري فيه الحياة، فتمدّه بالشهوة والغريزة. كنت أريدها آدمية تشعر بوجودها لأنها تحسّ بحرِّيَّتها، وتعمل على إثبات هذا الوجود، عندما تتمتع بحرِّيَّتها الإنسانية التي وهبتها لها الطبيعة، ومَدَّتها بها الحياة، فاكتشفت أنها مجرَّد آلة صمّاء في يد ما يسمّونه العادات والتقاليد، تخضع لها أكثر من خضوعها لأيّ شيء آخر في هذا الوجود، وليس في إمكانها أن تحطّم، أو حتى تساعد غيرها على تحطيم أيّ سَدّ من هذه السدود الواهية المتداعية.

ورغم ذلك، لم أيْئَس، ولم أستسلم.. كنت معتدّاً بنفسي، معتدّاً بمقدرتي على خلقها خلقاً جديداً. ولم أشأ أن أعلن استسلامي وعجزي، وهزيمتي، فتركت حكاية الكتابة وحكاية المطالعة، واتَّخذت طريقة أخرى.. أسلوباً آخر.. أسلوب المناقشات الهادئة البسيطة غير المعقَّدة، فكنت أجلس إليها

لأناقشها مثل هذا النقاش:

– قرأت، في جريدة اليوم، أن هناك جمعية نسائية قد تأسَّست في بنغازي، مهمّتها العمل على الرفع من مستوى المرأة الليبية، والأخذ بيدها إلى حياة أفضل، فما رأيك لو تكوَّنت مثل هذه الجمعية في طرابلس، أيضاً؟

– وماذا ستعمل هذه الجمعية هنا؟ وما مهمَّتها؟ وهل تعتقد أنها ستقوم بأيّ عمل ذي فائدة؟

– يكفي أنها تثبت للمرأة وجودها إلى جانب الرجل، في مجتمع، يكاد يمَّحي منه وجود المرأة... يكفي أن وجودها يدلّ على أنه، بجوار الرجل، هناك مخلوق آخر اسمه المرأة، تحسّ بإحساساته نفسها، وتشعر بمشاعره نفسها.

– وكيف تثبت هذه الجمعية وجود المرأة إلى جانب الرجل؟

– بعقد الاجتماعات، وإلقاء المحاضرات، ومناقشة قضايا المرأة، والعمل على تثقيف عقلها وتنوير بصيرتها.

– هذا يستدعي خروج المرأة من المنزل.

– لنفرض ذلك.. فما العيب فيه، إذا كان الغرض شريفاً والهدف سامياً؟

إن خروج المرأة إلى معترك الحياة أصبح شيئاً ضرورياً حتى تؤدِّي واجبها في الحياة.

– المرأة، يا سليم، خُلِقت للبيت، ولم تُخلَق للشارع.

- ومن ينكر هذا، يا مريم؟ لكن يجب أن تدركي أن زمن الحريم... زمن وضع المرأة في البيت وإقفاله عليها من الخارج بسبعة مفاتيح، قد ولّى، ولن يعود أبداً..

- ومن هي هذه المرأة التي تملك الشجاعة الكافية التي تساعدها على الخروج إلى الشارع؟.

- إنها كلّ امرأة تشعر بوجودها، وتحسّ بحرِّيَّتها، وتنعم بإنسانيَّتها.

- إن مثل هذه المرأة ستصبح مضغة في الأفواه.. في أفواه الناس، يمضغونها حين يصبحون، ويمضغونها حين يمسون، ويمضغونها في الأصباح والأمساء.

- ماذا تقصدين بقولك هذا، يا مريم؟

- لو فُرِض أن رزقنا بنتاً، فهل تسمح لها بالخروج سافرة، مثلاً؟

- وما يمنعني من ذلك؟ إن الحياة في تطوُّر، يوماً بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة، وهي تطالبنا بأن نتطوَّر معها، وإلّا سارت في طريقها، وخَلَّفتنا وراءها. تأكَّدي أنني مستعدّ لاصطحابك أنت- أيضاً- معي في الشارع. ولولا أن مثل هذه الأمور لا تُفرَض على الإنسان فرضاً، لأجبرتك على ذلك.

- وترضى أن يتقوَّل الناس في ابنتك أو زوجتك؟

- أوَّلاً: أقوال الناس لا تهمّني ولا تؤثِّر فيَّ، وثانياً: أقوال الناس هذه، التي تهتمّين بها وتخافينها، سوف لن يكون لها وجود.. إن هذه الألسن التي تخشينها ستخرس في ذلك الوقت.. وقت سفور ابنتي. إن هذه الأغلال

التي تكبلكنّ، الآن، ستتحطَّم وتتلاشى، يوم ذاك.

- إن هذا اليوم الذي تتحدَّث عنه، و- بالأحرى- الذي تحلم به، لا يزال بعيداً جدّاً، فلماذا تتعب نفسك بالتفكير فيه، دعنا منه، الآن.

- إنك واهمة، يا مريم، إذا اعتقدتِ أن الأيّام تتغيَّر من تلقاء نفسها. إن الحياة لا تتقدَّم ولا تتطوَّر إذا لم نعمل نحن على تطوّرها وتقدُّمها، وعلينا- نحن الذين نؤمن بهذا- أن نعمل، منذ الآن، لتهيئة العقول والأفهام والمدارك على تقبّل تطوُّر الحياة الذي ننتظره، علينا أن نساند الحياة ونسايرها وإلّا داستنا بأقدامها الصلبة التي لا ترحم.

- أنت مسكين، يا سليم. أنت خياليّ.. تعيش في وهم.

- بل- بالعكس- أنا واقعيّ أعيش كلّ حياتي، وكلّ ذنبي أنني ذو بصر ممتدّ، أنظر إلى بعيد، أقدِّر المستقبل، وأحاول أن أساير الحياة، في خطوها وسرعتها.

- لذلك، فأنت لا تهتمّ بأقوال الناس، ولا تقيم وزناً لما يتقوَّلون به خلف ظهرك، حتى هؤلاء القلّة الذين يضحكون في وجهك، ويوافقونك في أقوالك وآرائك، هم يسخرون منك، بعد ذهابك، لأنهم، في قرارة أنفسهم، لا يتفاعلون معك.

- ذلك لأنهم مساكين، يعانون من عقدة الخوف الكامنة في أعماق نفوسهم، ولا يستطيعون التخلُّص منها.

– إنهم يخافون ما يقوله الناس عنهم، أمّا أنت، فتحاول أن تظهر بمظهر البطل، الذي لا يهتّم بما يسمعه.

– إذا اهتممت بما يقوله المغفَّلون المخرِّفون عني، حكمت على نفسي بالسجن المؤبَّد، مدى الحياة، في قوقعة مستحكمة من العادات والخرافات، وأنا إنسان، وأريد أن أحسّ وأشعر بإنسانيَّتي ووجودي وحرِّيَّتي.

– أمّا أنا، فلا تنتظر مني أن أرافقك في هذا الطريق.

– كنت أريدك، يا مريم، أن تكوني عوني وسندي، وأن تضعي يدك في يدي، نسير معاً جنباً إلى جنب، نتحدّى العادات، ونهزأ بالتقاليد، وندوس على الخرافات والسخافات، حتى نحقّق وجودنا، ونكون قدوة لغيرنا.

– لا. لا.. يا سليم، لا تتوقع مني هذا، فأنا من هذا المجتمع، وأنا أخاف ما يقوله الناس خلفي.

– إذا طلبت منك أن تعملي شيئاً، واستجبت لطلباتي، فإن الناس لا يوجّهون اللوم إليك أنت، بقدر ما يوجّهونه إلّي أنا، لأنهم يدركون أنك زوجتي، وكلّ زوجة خاضعة لأوامر زوجها.

وينتهي حديثنا عند هذا الحدّ، دون أن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام، بقدر ما أكتشف بعدها عني مسافة أخرى، في الأراء والأفكار. كلّ مناقشة بيننا كانت تنتهي بلا شيء. كان جوابها دائماً واحداً، لا يتغيَّر.. إنها تخاف أقوال الناس عنها.. تخاف ما يتقوَّل به الناس خلفها.. وكنت، عقب كلّ مناقشة، أحسّ ببعدها وانفصالها عني. وذات يوم، وبعد أن

ظهرت (تقليعة) السينما النسائية، جئتها أقول:

– أنا مستعدّ لاصطحابك معي إلى السينما، بدلاً من أن أدعك تذهبين إلى سينما النساء هذه، التي هي كناية عن منبع لفساد الأخلاق.

وخبطت على صدرها بيدها، وشهقت، شهقة، كاد ينفجر لها قلبها، ثم قالت في فزع ما بعده فزع:

أنا أذهب معك إلى السينما.. إلى سينما الرجال؟

– وما هو العيب في ذلك؟

– لا أنكر أنه لا عيب في هذا، ولكن..

– لكن ماذا؟

– لكن، ماذا يقول الناس عني؟ عندما يعلمون أنني ذهبت معك إلى السينما المخصَّصة للرجال؟

– ليست هناك سينما مخصَّصة للرجال، ولكن هناك سينما مخصَّصة للنساء، كان الغرض منها تحرير المرأة بوسائل وطرق معوجّة ملتوية.

– مهما يكن الأمر، فلا تنتظر مني مرافقتك.

هكذا، كانت حياتنا، دائماً، في صراع بين عقلين مختلفين: عقلية في السماء، وأخرى في الحضيض. صراع بين فكرتين: فكرة متحرِّرة تؤمن بالحياة، وتؤمن بالإنسان، وفكرة جامدة متحجِّرة، مصفَّدة في السلاسل

والأغلال. صراع بين نظرتين: إحداهما ترى الحياة واسعة رحبة، أثمن من أن نضيِّعها وندوس عليها بالأقدام، وأخرى لا ترى في الحياة إلّا وسيلة للحصول عمّا يملأ البطون، ويشبع الشهوات.

هكذا كانت حياتنا، وهكذا استمرّت، لكنني- رغم ذلك- لم أستسلم، ولم أقرّ بهزيمتي.. كنت أقاوم دائماً، وأقاوم بشدّة وصلابة، وكنت أدافع، وأدافع في قوّة وإصرار، إلى أن انقضت سنة على زواجنا، وإذا بي أصدم صدمة نكراء، ينهار أمامها آخر حصن في قلعة مقاومتي، ويتبخّر آخر حلم من أحلام شبابي.. كان ذلك بعد مضيّ سنة على زواجنا.. على زواجي من مريم.. زواجي الذي اعتقدت- أوَّل الأمر- أنه بداية حياتي ونقطة انطلاق نحو سعادتي ورفاهيّتي في هذا الوجود. أجل.. تبخَّر آخر حلم من أحلام شبابي بعد سنة واحدة، فقط، من زواجنا، ففي نهاية هذه السنة رزقنا بمولودنا الأول.. رزقنا بمحمود، وإذا بمريم.. زوجتي.. عشيرة حياتي.. شريكة وجودي، تنقلب إلى مريم أخرى.. إلى إمرأة أخرى، إلى شيء آخر، لم أكن أعرفه، ولم أكن أتوقَّعه، ولم أكن أحلم به حتى مجرَّد حلم. لقد أصبحت مريم مخلوقاً آخر.. إنسانة أخرى، إذا ثبت أنها إنسانة حقاً.. مخلوقة غير التي أعرفها، وغير التي عاشرتها سنة كاملة، أحاول الأخذ بيدها، وتنظيف عقلها، وغسل دماغها من الرواسب المترسِّبة فيه، لتتغيَّر نظرتها إلى الحياة والأحياء، وأجعلها تنظر إليها من زاوية أخرى، غير التي تعوَّدت أن تنظر إليها منها.. قضيت سنة كاملة. اثني عشر شهراً مؤمّلاً إصلاحها، ومؤمِّلاً تنظيف عقلها، ومؤمّلاً اقتلاع الرواسب

من تفكيرها ومؤمّلاً، بين هذا وذاك، انتصاري على سخافة العادات والتقاليد، في انتصاري عليها هي.

لكن.. لقد تغيَّر كلّ شيء، وتبخَّر كلّ شيء بعد مولد ابننا محمود؛ فقد انقلبت مريم إلى شيء آخر، حتى أنها أصبحت لا تكتفي، في أثناء مناقشتي لها ومحادثتي معها، بالاعتراف بخطئها، والإقرار بنقصها، بل أصبحت مريم أخرى.. مريم جديدة، لها لسان تدفع به، ولها حجج تتذرَّع بها. حجّتها، دائماً، على طرف لسانها، ودفاعها، دوماً، في يدها، تشهره في كلّ وقت تدافع به عن كلّ موقف، وتتَّخذ منه ذريعة لإهمالها ولتقصيرها. إذا سألتها لماذا لم تقرأ هذه الصحيفة، قالت إن محموداً لا يترك لها من الوقت ما يمكنها من قراءة الصحيفة.. وإذا لمتها لماذا لم تنظِّف أو تنظِّم هذا الركن من المنزل، قالت أن محموداً لم يدعها تعمل شيئاً، وإذا جلست لأناقشها أو حتى أحادثها في موضوع ما، مهما كانت أهمِّيَّته ومهما كان أثره، تتخلص من المناقشة وتتخلَّص من الحديث، بحجة واحدة لا تتغيَّر أبداً، ولا تتبدَّل، هي محمود.. فهي، دائماً، تطلب تأجيل النقاش وتأجيل الحديث إلى ما بعد أن يذهب محمود إلى فراشه. وإذا أشعلت النور واستغرقت في المطالعة ساعة، بعد الوقت المحدَّد لنوم محمود، أخذت تتململ، هنا وهناك، وتُظهر اشمئزازها ونفورها وضيقها، فإذا لم ألتفت إلى كلّ ذلك صارحتني بقولها: «أطفئ النور، من فضلك، إن محموداً لا ينام في النور».

محمود هذا.. ابني.. ابني أنا.. جزء مني، اتَّخذَتْ منه سلاحاً ضدّي، تحاربني به، وتهدّدني به، وتسكتني به، وتتَّخذ منه ذريعة لها.

محمود ابني أنا.. ابني البكر.. ثمرة حبّي، أرادت أن تخلق منه عدوّاً لي.. شبحاً يهدّدني، ويخيفني.. شيئاً أندم على مجيئه إلى الحياة، وألعن نفسي على ساعة النحس التي تسبَّبت فيها بمجيئه إلى هذا العالم لينغِّص حياتي، ويزيد من شقائي، ويشعرني بحرماني.

اعتقدت- أوَّل الأمر أن ابني هذا سيكون سبباً في التخفيف من ثقل ما أرزح تحته من خيبة أمل، وإذا به- بعد أن جعلته سلاحاً في يدها مشهراً في وجهي، مسلَّطاً على رأسي- يزيد من شعوري بخيبة أملي، ويزيد من إحساسي بالثقل الواقع على كاهلي. كلّ ذلك كان من جزءاً من عقلية مريم.. عقلية زوجتي أنا، التي رُبِّيَت عليها، ونُشِّئَتْ بها، وزُرِعت في تفكيرها، منذ الصغر.. العقلية السخيفة التي تستولي على كثيرات من أمثالها، وتملي عليهنّ بأن الولد الأوَّل... المولود البكر (خاصّة إذا كان ذكراً) هو السلاح الفتّاك الذي يمكِّن الزوجة من الدفاع عن نفسها وعن كيانها وعن وجودها، هو السلاح الذي يماثل سلاح الزوج، أي (الطلاق)، فعليها أن تعرف كيف تستغلّ هذا السلاح، وكيف تستعمله، وإلّا أصبح ضدّها، هو الآخر.

أحسست أنا بكلّ هذا.. أحسست بوطأة وجود محمود في حياتي، وهل يوجد أب يكره ابنه البكر، خاصّة إذا كان ذكراً؟

لا أعتقد أن هناك من يكره ابنه، لكنني أنا شعرت بكراهية نحو ابني، وتمنَّيت لو لم يولد!! صدّقني- يا أخي- لقد كرهت ابني.. فلذة كبدي، ولم يكن الذنب في ذلك ذنبي أنا، إنما هو ذنبها هي.. ذنب مريم.

وفكَّرت.. فكَّرت كثيراً بسبب كلّ هذا الشقاء الذي أحسّه، وتساءلت: ما

مبعث كلّ هذا الإحساس بالتعاسة؟ إنها هي.. مريم زوجتي، هي سبب كلّ ما أنا فيه من شقاء وتعاسة وحرمان.

وبدأت بذور الثورة تنزرع في كياني.. بدأ كلّ شيء يتغيَّر في نظري.. في نفسي.. أمام عينيّ.. بدأت أحسّ بالفتور يدبّ في قلبي نحوها، وتأكَّدت أن هذه ليست هي الزوجة التي يجب أن تكون زوجتي أنا، بالذات. كان يمكن أن تكون زوجة لأيّ رجل آخر، أمّا أن تكون لي أنا بالذات، فلا.. كان يمكن جدّاً أن تكون زوجة لشابّ آخر، لا يحمل في روحه ودمه الشعور بالقرف والتقزُّز من هذا المجتمع ونظام الحياة فيه، ولا يحمل في فكره وعقله إلّا الرضا بما وجد نفسه عليه، من عادات وتقاليد وسخافات، أمّا أنا، الشابّ الناقم الثائر، الكافر بكلّ هذه القيم والمفاهيم والمعايير، فكيف تكون هذه المرأة.. هذه الدمية.. هذه الألعوبة، زوجة لي؟

لا.. ليست هذه المرأة التي يمكنني أن أضع يدي في يدها، وأسير بها عبر الحياة، أتحدّى وإيّاها العادات، وأقتحم وإيّاها التقاليد، ونهدم، معاً، بيد واحدة.. بمعول واحد، كلّ هذه الخرائب التي عشَّش فيها البوم، ونعقت فيها الغربان. هذه الخرائب، وهذه الأعشاش التي لا زال ساكنوها يعتقدون أنها عمارات، يمكن أن يسكنها آدميون، في حين أنها لا تصلح، حتى لسكن الحيوانات والجرذان.

لا.. ليست هذه هي الزوجة المثالية التي كنت أحلم بها، والتي رسمت لها صورة في خيالي، يوم فكَّرت في خطبتها.. إنها جامدة كالصخر، باردة كالثلج، متحجّرة كالصقيع، حتى عواطفها نحوي لا تعرف كيف تعبّر عنها؛ فرغم مرور الأيّام بيننا، وانقضاء سنة كاملة على زواجنا، ورغم أن

مولودنا الأوَّل قد شرَّفنا، ومعنى كلّ هذا أن (الكلفة) قد زالت بيننا، ولم يعد لها وجود في جوّ حياتنا اليومية.. رغم كلّ ذلك، فهي لا زالت تكبت عواطفها نحوي، وتحبس إحساساتها إزائي، وتئد شعورها.. شعور الأنثى، معي.

أنا لا أقول إنها لا تحبّني، أو لا تميل نحوي!

أبداً.. أنا لا أقول هذا، فتصرُّفاتها وأحاديثها، طوال سنة، كلّها تنفي هذا الزعم، وكلّها تدحضه، وكلّها تكذِّبه، فما إن أمرض، ولو مرضاً بسيطاً، حتى أراها تحوم حولي كالفراشة، تنتظر أوَّل إشارة مني، وتلبّي أوَّل طلب يصدر عني. وإذا اشتدّ مرضي كنت أراها تبكي، وإن كانت تخفي بكاءها عني، وإذا عدت إلى البيت، غير رائق المزاج، أو لاحظت على وجهي علامة انفعال ما، فهي تسارع نحوي تسألني عمّا بي، وتلحّ في معرفة ما عَكَّر صفوي، وما غَيَّرَ مزاجي، وما بعثني على الانفعال، وهذا يدلّ- ولا شكّ- على أنها تحبّني، وعلى أنها تعطف عليّ، إلّا أنها كانت لا تعرف كيف تظهر هذا العطف، ولا كيف تعبِّر عن هذا الحبّ، بطريق غير هذه الطرق الساذجة البسيطة التي لُقِّنَتْها، منذ الصغر.

إنها تحبُّني، ما في ذلك شكّ، وإلّا كنت لاحظت عليها بعض النفور أو الابتعاد، لكن حبَّها لي كان حبّاً صامتاً يعتمل في نفسها، وتشعر به في داخلها، لا تعرف كيف تعبِّر عنه؛ فأنا لا أذكر، منذ زواجنا أنني سمعت منها كلمة غزل ما، حتى كلمة (أحبّك) لم أسمعها منها، بل لم تتجرَّأ، يوماً، وتناديني باسمي المجرَّد، إلّا إذا كنّا وحدنا، فقط، شأنها في ذلك شأن غيرها من نساء هذا المجتمع التعس المنكود، اللائي يرين في مثل هذه

الأمور هبوطاً بمستوى الأخلاق، وخروجاً عن ميحط العادات الحسنة، والتقاليد الحميدة؛ إذ كيف يجوز، في عرفهنّ، للمرأة، أن تنادي زوجها باسمه أمام الناس، أو تباشره بقبلة أو بكلمة غزل؟ إن المرأة، في نظرهنّ لا يجوز لها- مطلقاً- أن تُظهِر لزوجها حبّها له، وتعلُّقها به، حتى لا يهزأ بها، وحتى لا يستغلّها، ولأن إظهار الزوجة تعلُّقها بزوجها معناه حاجتها إليه، وهذا طريق للاستهانة بها، ولاستعباده إيّاها. وكانت مريم- كغيرها من نساء هذا المجتمع- لا تهتمّ بمظهرها أمامي، ولا تهتمّ بملابسها، ولا تهتمّ بزينتها إلّا إذا كانت ذاهبة لزيارة إحدى صديقاتها أو منتظرة زيارة من إحدى صديقاتها.. وقد حاولت كثيراً أن أغيّر من رأيها في هذا الموضوع، بالذات، في هذه الناحية، التي أراها ناحية مهمّة جدّاً في الحياة الزوجية وفي تقوية الروابط بين الأزواج.. حاولت أن ألفت نظرها إلى أنه من حقّ الزوج على زوجته أن تتزيَّن له، وأن تظهر أمامه بالمظهر الذي يغريه بها، ويدفعه إليها، ويصرف نظره عن غيرها من النساء، حتى لا يضطرّ إلى هجرها، أو يبحث عن سواها من النساء اللوائي يلتقي معهنّ في الشارع.. أشرت إليها بذلك مجرَّد إشارة، أوَّل الأمر، وحاولت أن أفهمها، بطريقة ما، أنه إذا كانت الزوجة تطلب من زوجها أن يكون، دائماً، زهرة في نظرها، كذلك الزوج يريد، أن تكون زوجته وردة مفتِّحة في كلّ وقت من أوقات ليله ونهاره. وعندما لم يفد معها التلميح، ولم تُجْدِ معها الإشارة، صارحتها مصارحة، في كثير من المرّات، إذ غالباً ما كان يدور بيننا مثل هذا الحوار:

- اسمحي لي، يا مريم، أن أصفك بالإهمال، فأنت مهملة في نفسك، ومهملة في حقّك، ومهملة في حقّي أنا، أيضاً.

- كيف ذلك؟ هل كلّ ما أقدِّمه لك غير كافٍ؟

- إنك، يا مريم، لا تهتمّين بملابسك، ولا تهتمّين بزينتك، ولا تهتمّين بمظهرك إلّا إذا كنت خارجة في زيارة إحدى صديقاتك، أو إذا كنت منتظرة زيارة من إحدى صديقاتك، أمّا هنا.. في البيت... وأمّا لي أنا، فأنت...

- دعك من الخيال الذي تعيش فيه، يا سليم.

- لا... ليس ما أقوله خيالاً، بل إنه الواقع... إن أيّ زوج يريد أن يرى زوجته (عروساً) دائماً.

- المرأة، يا سليم، إذا تزوَّجت، وأصبحت ربّة بيت، وأمَّ أولاد، فإن زمن اهتمامها بنفسها يكون قد ولّى.

- هذا خطأ، تقع فيه كلّ النساء... أنا لا أصدِّق شيئاً ممّا تقولين.

- إن أيّة امرأة مثلي، لا تجد الوقت للاهتمام بمظهرها، فمسؤولية البيت، ومسؤولية الولد، ومسؤولية الزوج، تأكل كلّ وقت فراغها.

- ما بال الأجنبيات؟ إن الواحدة منهن لا تكاد تختلف كثيراً، في مظهرها، عن أيّام خطبتها.

- لا تقارنّي بهنّ.

- لماذا؟ ألسنَ نساءً، مثلك، تماماً؟، وعليهنّ مسؤوليّات مثل المسؤوليّات التي عليك أنت؟

- لكن حياتهنّ.. نظام حياتهنّ يختلف كثيراً عن نظام حياتنا، نحن-

العربيّات.

– ولماذا لا تكيّفين حياتك، كما يكيِّفن حياتهنّ، بما يتلائم ورسالتهنّ نحو الزوج والولد والمنزل؟

– أنا... بل نحن كلّنا لا نستطيع هذا.

– ولماذا؟ أنا– مثلاً– أريد أن أرى فيك أنواعاً متعدّدة من النساء.. لا أكتفي، أبداً، بأن أراك زوجة فحسب، بل أريدك زوجة وحبيبة وعشيقة وخليلة، أيضاً. أريدك امرأة وأنثى، في الوقت نفسه، لست أنا فحسب، بل كلّ الرجال... كلّ الأزواج يريدون أن يروا في نسائهم كلّ نساء العالم.

– هذا شيء يجب عليكم ألّا تفكّروا فيه، أنتم الرجال، لأننا نحن النساء لا نستطيعه أبداً.. هكذا نشأنا.. نشأنا على العفّة والطهر والأخلاق الحميدة، ولا يمكننا، أبداً، أن نستهتر.

– وهل مثل هذه التصرُّفات تعتبر استهتاراً في نظركنّ؟. هل إذا طلب الزوج من زوجته أن تتزيَّن له، يكون استهتاراً؟ هل إذا قبَّلتني تصبحين مستهترة؟ ما هذه العقلية السخيفة؟

– إن أمَّهاتنا وجدّاتنا لم يفعلن مع آبائنا وأجدادنا ما تطلب مني أن أفعله معك، الآن.

– وهل يشترط علينا أن نسير في الطريق الذي كانت تسير فيه أمّك مع أبيك أو جدّتك مع جدّك؟ إذا كان هذا ضرورياً، حتى لا توصفي بالاستهتار، وإذا كان هذا فرضاً علينا اتِّباعه، فعلينا أن نئد شخصيّاتنا وإرادتنا. أنا

أعرف كثيراً من الأزواج الذين تتحدَّثين عنهم لا يقربون زوجاتهم إلّا في الظلام، فهل يجب علينا أن نفعل كما يفعلون، حتى لا نوصف بالتهتُّك والميوعة والاستهتار؟

– أرجوك، يا سليم، اقفل هذا الموضوع.. لا أريد الخوض فيه.

وفعلاً، أُقفل الموضوع، وأُنهِيَ النقاش، وأنا أشعر بالنقمة عليها وعلى أمثالها من النساء الجامدات المتحجِّرات.

بدأت أشعر بالملل، وأحسّ بالوحشة والوحدة في بيتي.. بيتي الذي كنت أظنّني قادراً على أن أخلق منه جنّة وارفة الظلال، تُظِلُّني أنا وزوجتي وأولادي، وإذا بي أجده جحيماً لا يطاق، فهجرته ومن فيه، وما فيه، إلى الشارع.. صرت أقضي معظم أوقاتي خارج البيت: في المقاهي.. في النوادي في السينمات، ولا أعود إليه.. إلى منزلي إلّا في ساعة متأخِّرة من الليل.

أصبح لا يهمّني البقاء في بيتي، بل صرت أنظر إليه كما أنظر إلى أي شيء كريه، شي متعفِّن.. شيء يبعث على القرف والاشمئزاز والتقزُّز.

كلّ ما سعيت إليه... كلّ ما اهتممت به.. كلّ ما حاولت جهدي فيه، هو أن أوفِّر لمريم جميع طلباتها، وأن أوفِّر لها كلّ ما تحتاج إليه، مهما كان تافهاً.. ما إن تطلب شيئاً، وبمجرَّد أن تشير إليه مجرَّد إشارة، حتى أسارع بإحضاره إليها، في الحال، دون إبطاء.

وهبتها كلّ شيء... وفَّرت لها كلّ طلب... شيء واحد لم أستطع أن أهبها إيّاه... ذلك هو عواطفي التي أخذت تجفّ وتيبس من ناحيتها. لا أقول إنني بدأت أكرهها، لأنها، في الواقع، لم تأت أمراً أكرهها من أجله، لكنني،

فقط، أصبحت أعطف عليها، وأرقّ لها، بدلاً من أن أحبّها، لأنني كنت أعلم أنها ضحيّة مثل غيرها من النساء، وفرق... فرق كبير بين أن تحبّ إنساناً ما لأنه إنسان مثلك، فتهبه عواطفك حارّة متّقدة، وبين أن تعطف عليه مجرَّد عطف.. فرق كبير بين أن تحبّ إنساناً لمجرَّد الحبّ، وبين أن تحبّه لأنك تعطف عليه وترقّ لحاله، وتأسف لوضعه.

إن الحبّ، في نظري، لا يكون، أبداً، نتيجة شعور بالعطف، إنما العطف هو الذي يكون نتيجة حبّ... إننا نعطف على إنسان ما لأننا نحبّه، ولا نحبّه لأننا نعطف عليه. إن الشخص الذي تعطف عليه. هو في حاجة إلى عطفك... إلى مساعدتك... إلى معونتك، أمّا من تحبّه فيختلف كثيراً. أنا -مثلاً- لا أحبّ أحداً إلّا إذا شعرت أنه في حاجة لي، تماماً، كحاجتي إليه، وأنه يساويني في أشياء، ويفوقني في أخرى، وأقلّ مني في ثالثة... أنا لا أحبّ أيّ إنسان إلّا إذا اكتشفت فيه أشياء وأموراً تحبِّبه إلى قلبي وتقرِّبه مني، وتجعلني أتجاوب معه، ومع عواطفه. وأيّ إنسان لا يكون كذلك، في نظري، إلّا إذا اكتشفت فيه نواحي التفوُّق، حيث أشعر، عندها، بحاجتي إليه، وأنا مع مريم، لم أعد أشعر بشيء من هذا كلّه... لم أعد أشعر بحاجتي إليها، ولا بارتباطي بها، لأنني لم أكتشف فيها شيئاً يميِّزها عن الآخرين. لم أكتشف أنها تساويني في أشياء، وتنقص عني في أخرى، وتمتاز عني في ثالثة... كلّ ما شعرت به نحوها كلّ ما اكتشفته فيها، كلّ ما عرفته عنها، أنها دائماً في حاجة إليّ... في حاجة إلى مساعدتي... في حاجة لأن أحملها، دائماً، فوق كتفي. ومن هنا، أصبح حبّي لها مجرَّد عطف، تماماً، كما تعطف أنت على أيّ مخلوق يصادفك في الطريق. شعوري نحوها مجرَّد عطف على ضعفها واستكانتها ونظرتها المتجمّدة

إلى الحياة التي لا تريد أن تغيّرها... عطف على تحجُّرها. أصبحت أنظر إليها كما أنظر إلى أيّ ضحيّة من ضحايا المجتمع... من ضحايا العيد... ضحيّة من واجبي الإنساني أن أساعدها، ومن واجبي أن أرعاها ومن واجبي أن أوفر لها كلّ ما تحتاج إليه.

وانتابني القرف والغثيان، لأنني لا أطيق رؤية دموع الدونية والاستعطاف. لا أطيق رؤية نظرات المسكنة، ولا أطيق أن أرى مواقف الضعف والاستكانة. لا أطيق أن أرى شيئاً من كلّ ذلك، خاصّة في المخلوقة التي تزوَّجتها، واعتقدت فيها القّوة والصرامة والجرأة، لتكون عوني وساعدي ودافعي إلى الأمام، وإذا بي أُصدم في تقديراتي عندما أجدها عكس ماقدَّرت وفكَّرت؛ عكس ما كنت أتصوَّر، عكس ما كنت آمل. وأدركت، بعد فوات الوقت، أنني تزوَّجت مجرَّد أنثى، كلّ همّها في الحياة إشباع معدتي وإشباع غريزتي، من غير أن تفكِّر، ولو مرّة واحدة، في العمل على إشباع عقلي وفكري. تزوَّجت أنثى لا تنظر نحوي إلّا على أساس أنني معدة وغريزة.

أسفت على كلّ ذلك، فكرهت الزواج والزوجات، بعد أن أدركت أنني- أنا ابن القرن العشرين- قد تزوَّجت كما تزوَّج أبي، وكما تزوَّج عمّي، وكما تزوَّج جدّي منذ أكثر من ثلاثة أرباع القرن، وكما يتزوَّج غير أبي وعمّي وجدّي، من رجال هذا المجتمع.

تزوَّجت كما تزوَّج غالبية، بل كلّ رجال وشباب هذا المجتمع وشبابه، زواجاً، هو أقرب ما يكون إلى عملية (سعدك بختك)... زواج يانصيب، لا أكثر من هذا ولا أقلّ... أنا تزوَّجت مثل هذا الزواج المضحك المبكي بعد

أن كنت، قبل زواجي، أضحك عليهم جميعاً، وأهزأ بهم جميعاً، وبعد أن كنت أريد أن يكون زواجي زواجاً مثالياً، نموذجياً، يمكن لكلّ إنسان أن يقتدي به، وأن يسير على هداه.

الآن، أدركت أنني ذهبت ضحيّة على مذبح الأنانية والعادات والتقاليد، كما ذهب غيري من الشباب الذين نُكِبوا في آمالهم، ونُكبوا في أحلامهم، فلو لم أكن ضحيّة كغيري من الضحايا... ضحايا هذا المجتمع الذي وجدت فيه رغم أنفي ورغم إرادتي، لكان زواجي شيئاً آخر، و- من ثَمَّ- كانت حياتي الزوجية لوناً آخر. لو لم أكن ضحيّة لاخترت زوجتي بنفسي، دون أن أغترّ بما أسمع ومن غير أن أتأثَّر بما يقال، كما يختار أيّ إنسان آخر زوجته في غير هذا المجتمع...

أدركت أنني ضحيّة... ضحية التشبُّث بالعادات والتقاليد التي تفرض علينا أن نسلِّم أنفسنا طوعاً أو كرهاً، لشيء لا وجود له اسمه (القسمة والنصيب).

أدركت أنني واحد من عشرات، بل مئات، بل ألوف ذهبوا، ومازالوا يذهبون، كلّ يوم، قرابين غير مقدَّسة، على مذبح هذه السفاسف والخرافات.

أدركت أنني فقدت، إلى الأبد سعادتي التي كنت أنشدها يوم تزوّجت من مريم، ولم يعد لي أيّ أمل في استرجاعها أو الوصول إليها، إلى السعادة المنشودة من الزواجي.

كل ذلك أدركته الآن. لكن، ماذا يفيد إدراكي لكلّ هذه الأمور؟ وماذا يفيد ندمي على كلّ ما حصل بعد فوات الأوان؟ هل يمكنني أن أصلح غلطتي؟

وهل- حقّاً- هي غلطتي أنا، أم هي غلطة يقع فيها كلّ الناس، بحكم العادة؟

أنا لا أستطيع أن أصلح شيئاً.. أن أصلح هذه الغلطة، إلّا بإحدى طريقتين لا ثالثة لهما: إمّا أن أرضى بما أنا فيه، أو ما وجدت نفسي فيه... ومعنى ذلك أن أقضي على حياتي ووجودي، أو أطلِّق مريم.

أطلِّق مريم؟!

لكن، ما ذنبها؟ ما جريمتها؟ ما جريرتها؟ ألم تكن هي نفسها ضحيّة مثلي أنا، تماماً؟ ألم أقرّ بهذا، وأعترف به أنا نفسي؟، فكيف ألومها على ذنب لم ترتكبه؟ كيف أحمِّلها مسؤولية شيء لم تُقدم عليه؟، ثم هل هي التي اختارتني، أم أنا الذي اخترتها بنفسي؟

هل جاءت تخطبني، أم أنا الذي ذهبت أخطبها؟

هل كانت هي تعرفني، قبل أن أتقدَّم إليها، وأخطبها من أهلها؟ بل هل كانت تسمع بي حتى مجرَّد سماع؟ إنها- بدون شكّ- لم تكن تشعر بوجودي، حتى مجرَّد شعور. وعندما تقدَّمت أخطبها من والدها، لا جدال أنها كانت تفكِّر، كما تفكِّر غيرها من البنات، في رجل.. أي رجل يتقدَّم لخطبتها. أبداً، لم تكن تفكِّر في أن هذا الرجل يحمل مثل ما أحمل أنا من آراء وأفكار ومعتقدات، ولا ينظر إلى الحياة، وإلى المرأة، بالنظرة التي أنظر بها أنا إلى المرأة، وإلى الحياة.

لا شكّ في أنها كانت تفكِّر في الزواج، وتحلم بالزوج، لكنها، أبداً، لم تكن تفكِّر في زوج مثلي أنا،.. لم تكن تعتقد أن زوجها سيكون ثائراً ناقماً

ساخطاً، لا يرضى بما يجد، إنما يطلب أن يكون كلّ شيء كما يريد هو... وإذن، ما ذنبها؟ ما جريرتها؟ وما جريمتها، إذا رزقتها الطبيعة بزوج ثائر ناقم ساخط؟ إنها لم ترتكب جريمة الارتباط بي، ولم ترتكب جريمة الزواج مني، ولم تقترف أيّ ذنب يجوز أن تعاقب عليه، فكيف يجوز لي أن أحاسبها وأحاكمها، أُصدر أحكاماً ضدّها؟

أنها بريئة.. هذا شيء أعترف به أمام نفسي، وأمام الله، وأمام سائر الناس.

ربَّما أنا هو المجرم، لكن، كيف أكون مجرماً؟ كيف أكون مخطئاً؟ ما هو الجرم أو الخطأ الذي ارتكبته؟ ألم أخترها اختياراً من بين جميع الفتيات اللائي عُرِضن عليّ؟

ألم تصلني عنها أخبار، كلّها تصفها بصلاحيّتها لتكون زوجة لي.. لي أنا، بالذات؟

وهل كنت أقبلها لو لم تصلني هذه الأخبار التي صوَّرتها زوجة صالحة لي؟

عندما تزوَّجتها. عندما قبلت الاقتران بها، لم أستسلم للقسمة والنصيب، بل اجتهدت، وبحثت، وسعيت، فإذا لم أوفَّق في اختياري فما ذنبي؟ وما جريرتي؟ وما جريمتي، حتى أتحمَّل هذا الشقاء وهذه التعاسة؟

أنا لا أشكّ في أن المذنب الأوَّل... المجرم الأول.. المسؤول الأوَّل، لم يكن سوى المجتمع.. مجتمعنا هذا، بما يرزح تحته من ثقل العادات والتقاليد التي أكل عليها الدهر وشرب..

المسؤول الأوَّل، في نظري، هي هذه العقول الجافّة المتحجِّرة، التي لا تتفاعل مع الحياة المتطوِّرة النامية..

فلولا هذا المجتمع، بعاداته المتعفنة، وتقاليده الجامدة، وعقوله المتحجِّرة، لما حدث لي ويحدث لغيري كلّ هذا العذاب المتجدِّد، كلّ يوم وكلّ ساعة وكلّ دقيقة.

لولا هذه الأمور وما شابها، لما ذهبت أنا ومريم، وذهب، (ويذهب) عشرات غيري أنا ومريم، ضحايا على مذبح الأنانية والغطرسة وحبّ التشبُّث بالماضي.

شعرت بكلّ هذا، فلم أعد أهتمّ بشيء، ولم أعد أفكِّر في شيء، أقضي أكثر أوقاتي خارج البيت، بعيداً عن الدمية التي امتحنتني بها الأيّام، وبعيداً عن جوّ البيت الذي أصبحت أنفاسي تضيق به، وتضيق فيه، وتضيق منه.

وفي الأوقات القليلة النادرة، التي كنت أقضيها- مضطرّاً- في البيت، كنت أقضيها في المطالعة، لا أفرغ من قراءة كتاب، حتى أبدأ في قراءة غيره، ولا أنتهي من مطالعة قصّة، حتى أسارع بشراء قصّة أخرى.

اتَّخذت هذه الطريقة بعد أن وفَّرت لمريم كلّ ما تحتاج إليه.. فتحت لها جيبي على وسعه، ووضعت كلّ إمكاناتي تحت تصرفها.. وهبتها جيبي فأشبعت معدتها، أمّا عقلي فقد قفلته دونها، بعد أن أدركت أنها لا تهتمّ به.. وهكذا، أحسست بالفراغ والوحدة، وأن حياتي فارغة، وأن من واجبي أن أبحث عن شيء.. عن إنسان أملأ به هذا الفراغ في حياتي، لكنني لم أفكِّر أبداً في الطريقة التي أملأ بها هذا الفراغ القاتل، إلى أن كان يوم...

يوم لست أدري كيف كان، لكنه كان نقطة تحوُّل في مجرى حياتي.. كان ذلك اليوم يوم شعرت بـ(فوزية) تعيش إلى جواري.

و(فوزية) هذه، التي كان لها فضل تغيير حياتي، رأساً على عقب، ليست غريبة عني.. ليست طارئاً جديداً في حياتي، فقد كانت تعيش قريبة مني.. تعيش معي خلال هذه الفترة، و- بالتحديد- منذ أكثر من سنة.

كانت تتردَّد على منزلنا أوَّل الأمر، ثم عاشت معنا، أنا ومريم. إن فوزية هذه هي ابنة وحيدة لرجل لبناني الأصل، جاء إلى ليبيا موظَّفاً، مع إحدى شركات البترول، بحثاً عن المال والثروة والكسب، شأنه شأن غيره من الذين تعجّ بهم بلادنا، على مختلف مللهم ونِحَلهم وجنسيّاتهم، بعد أن ترك زوجته وابنته الوحيدة (فوزية) في إحدى مدن لبنان... في مدينة بيروت، بالذات، وبعد أن توفيت والدة فوزية، لحقت بوالدها، حيث لم يعد لها هناك من تلتجئ إليه، وكانت صداقة متينة قويّة تربط بيني وبين والد فوزية، منذ تعرَّفت إليه، هنا، في طرابلس... وعندما لحقت به ابنته الوحيدة، شعر بأن ثقلاً كبيراً قد أُلقِي على كاهله، فهو رجل أعزب، تعوَّد أن يعيش بمفرده، منذ مجيئه إلى طرابلس، لا يستقرّ له قرار، ولا يعرف له مقرّ، فهو متنقّل، هنا وهناك، مع الشركة التي يعمل فيها: شهران يقضيهما في فزان، وخمسة أشهر في برقة، وأسبوعان في طرابلس، بالإضافة إلى تنقُّلاته المستمرّة وسفريّاته التي لا تنقطع. ومن هنا، تعوَّد الرجل على عدم الشعور بالمسؤولية، فهو يعيش كما يريد، وكما تحلو له الحياة، منذ أن غادر أسرته، وقدم إلى طرابلس وراء المرتَّبات المغرية.

تعوَّد أن يعيش حرّاً طليقاً، يفعل ما يشاء، ويسهر إلى حيث يشاء، فلا

يسأله أحد أين قضى سهرته، ولا لماذا تأخَّر في عودته... ووجود فوزية ابنته، إلى جواره، هكذا، فجأةً، أشعرَه بمسؤولية جديدة، لم يتحمَّلها طويلاً، لأن هذا الوجود غير المرغوب فيه... وجود فوزية، من شأنه أن يعكّر عليه صفو حياته، ويحدّ من حرِّيَّته، فضلاً عن أنه يجبره على طلب بقائه، باستمرار، في طرابلس، إلى جوار ابنته.

وفَكَّر الرجل في حَلّ.. فكَّر طويلاً في طريقة تخِّفف عنه هذا العناء، فهداه تفكيره إلى أن يلتجئ إليَّ أنا، صديقه (الوحيد الحميم)، على حَدّ تعبيره، يستعين بي في التخفيف من هذا الثقل الذي وقع عليه، فجأةً، ودون سابق إنذار. بحث الرجل عن وسيلة يتخلَّص بها من هذا الوزر، فلم يجد سواي أنا، فجاءني، ذات يوم، يعرض عليَّ الفكرة البسيطة التي اهتدى إليها، قائلاً:

لقد ماتت زوجتي في بيروت.

– ليرحمها الله... كلّنا لها.

– وجاءت ابنتي فوزية لتعيش معي، هنا، في طرابلس.

– أهلاً وسهلاً بها.. مَنْ لها غير والدها؟ أنت ملاذها الأخير، ما دامت لم تتزوَّج.

– لكنك تعرف ظروفي التي لا تسمح لي باستبقائها معي، فأنا دائم التنقُّل لا أستقرُّ في مكان، وأنا لا أطمئَّن لأحد من أقاربي هناك، فأستبقيها معه، خاصّة أنك تعرف جوّ بيروت، وكذلك ليس لي هنا، في بلادكم، مَنْ أعهد إليه بها... إنني حائر، ولا أدري كيف أتصرَّف.

– وما هو الحلّ الذي توصَّلت إليه؟

– ليس لديّ سوى حلّ واحد، لست أدري إن كنت توافق عليه أنت، أم لا.

– وما هو هذا الحلّ الذي تنتظر موافقتي عليه؟

– أن تأخذ فوزية معك.. في بيتك.. تعتبرها ابنتك أو أختك. هل توافق على هذا، أم أن السيِّدة مريم تمانع؟

– لا أعتقد أن مريم تمانع في هذا، لكن– ربّما– فوزية هي التي لا تقبل هذا الوضع؟.

– بل إنها ترحَّب به، خاصّة أنها لا تعرف أحداً سواكما، أنت والسيِّدة مريم، في هذه البلاد.

ومن يومها أصبحت فوزية تعيش معنا... في بيتنا..

وفوزية هذه فتاة حلوة، جميلة، في حوالي الخامسة والعشرين من عمرها، سمراء، ممتلئة بعض الشيء، قصيرة القامة نوعاً ما، أجمل ما فيها نظرتها الحالمة، وعيناها الساحرتان...

أتمَّت فوزية دراستها الثانوية في بيروت، قبل مجيئها إلى طرابلس، وأرادت أن تلتحق بالجامعة، لكنها التحقت بكلّيّة المعلِّمات هناك، وحصلت على إجارة التدريس، وكانت– أيضاً– شغوفة بالقراءة والمطالعة، تملأ كلّ أوقات فراغها بالمطالعة في أيّ كتاب تجده أمامها.. خاصّة القصص العاطفية، قصص الحبّ.

وأخلاقها كانت ممتازة، لا تسمع منها أيّة كلمة نابية أو غير مهذَّبة، ولا تتصرَّف أيّ تصرف خارج حدود الأدب واللياقة، ولا ترتدي من الملابس إلّا ما كان في نطاق الحشمة، البعيد عن كلّ إثارة، ولا تضع المساحيق على وجهها، ولا تصبغ شفتيها بالأحمر الصارخ، وإنما هي طبقة رقيقة شفّافة من الأحمر الفاتح الذي لا يكاد يرى بالعين المجرَّدة.

عاشت فوزية سنوات حياتها في رعاية والدتها، بحكم تغيُّب والدها، تمرح كما تشاء، وتفعل ما تريد، رغم أنه ليس هناك من يحاسبها أو يراقبها أو يسألها أين كانت، أو أين قضت يومها أو سهرتها، فوالدها كثير التغيُّب عن بيروت بحكم عمله، فهو يوماً هنا، ويوماً هناك، متنقِّلاً بين بلدان أوروبا وبلدان الشرق الأوسط، يبحث عن الثروة، وليس هناك من يراعاها ويتعهَّدها سوى والدتها... رغم كلّ ذلك، لم يثبت عليها، طوال سنواتها الخمس والعشرين، أنها ارتكبت فعلاً، أو قامت بعمل من شأنه أن يسيء إليها، أو يلوِّث سمعتها أو ينعتها بنعت غير حميد، أو تصرَّفت تصرُّفاً يَسِمها بميسم لا تقبله الأخلاق الفاضلة، بل إنها كانت مهذَّبة عاقلة، تعرف أين تضع قدمها مقدَّماً، ولا تخطو خطوة واحدة إلّا بعد أن تتأكَّد من سلامة تلك الخطوة ؛ ولا تقدم على عمل من الأعمال، إلّا بعد أن تعرف ما يترتَّب على ذلك العمل.

كان الفضل في ذلك؛ في تربية فوزية، يرجع إلى والدتها التي كانت تشرف على تهذيبها وتنشئتها تنشئة أخلاقية صميمة؛ فقد غرست في روحها حبّ الفضيلة، وحبّ الخير، وحبّ الأخلاق، كما غرست في نفسها كراهية عميقة لكلّ ما تقوم به بنات جنسها من تصرُّفات طائشة وأعمال لا تليق بفتاة تعيش في غير باريس.

كانت هوايتها الوحيدة... الشيء الوحيد المقرَّب إلى نفسها وروحها الشفّافة، هو حبّ المطالعة والشغف بالقراءة. وسعياً وراء زيادة معلوماتها العامّة، كانت تقضي كلّ أوقات فراغها في القراءة وفي التأمُّل وفي المطالعة. وهكذا، لم تستطع أن تقيم في بيروت (باريس الشرق) وحدها، دون معين ولا مرشد، بعد موت والدتها، فأسرعت تلحق بوالدها هنا، في طرابلس، رغم إلحاح الكثيرين من أقارب والدتها على بقائها بينهم، تعيش معهم، وتتزوَّج منهم.

لحقت بوالدها هنا، فسارع هو- بدوره- وطلب مني إبقاءها معنا: أنا ومريم، في بيتنا، تعيش معنا كأيّ فرد من أسرتنا الصغيرة... وقبلت أنا إبقاء الفتاة معنا في البيت، بعد أن اطَّلعت على طرف من ماضي حياتها النظيف.

وجاءت الفتاة إلى بيتنا لتقيم معنا، فاستاءت منها مريم، أوَّل الأمر، لكنني استطعت أن أقنعها بقبولها، بعد أن قصصت عليها طرفاً ممّا علمته عن ماضي الفتاة وسلوكها وأخلاقها، وشرحت لها الظروف السيِّئة التي وجدت نفسها تعيشها، رغم أنفها، فرقَّ لها قلب مريم، وقلوب النساء سرعان ما ترقّ وتعطف.

دخلت فوزية بيتنا، فخصَّصنا لها حجرة، ووضعنا فيها شيئاً من الأثاث اللائق الذي اشتراه والدها، (سرير – قومودينو – مقعد – خزانة ملابس – مشجب، وخزانة صغيرة للكتب)، واستقلَّت الفتاة بحجرتها، بعد أن ملأت خزانة الكتب بما حملته معها من بيروت.

كانت فوزية، شغوفة بالمطالعة، مولعة بالقراءة، تقضي معظم أوقاتها إمّا

في مساعدة زوجتي في شؤون البيت، أو في القراءة داخل حجرتها وهي ممدَّدة على السرير، فتزيد معلوماتها العامّة، وتنمّيها، يوماً بعد يوم. فهي، دائماً، تبحث عن الكتب الجديدة، وهي، دائماً، تشتري ممّا يعطيها والدها، بين الحين والحين، أيّ كتاب يظهر في السوق، ويروق لها.

وعندما لمست فيها هذا الشغف بالمطالعة، وهذا الحبّ العميق للقراءة، أردت أن أساعدها من جانبي، وأن آخذ بيدها، فسمحت لها بالدخول إلى حجرة مكتبي، سواء أكنت حاضراً أم كتب غائباً، لتختار الكتاب الذي تريده، دون استئذان. وبدأت تدخل حجرة المكتب، وتبحث في عناوين الكتب وما إن أعود من العمل، حتى تسارع نحوي قائلة، في خجل:

- دخلت حجرة مكتبك، اليوم.

- هل وجدت فيها ما يعجبك؟

- أجل.

- أيّ كتاب هو؟

- كتاب (..). هل تسمح لي باستعارته وقراءته؟

ومن غير أن أجيبها، أناولها الكتاب وأنا أشعر بأنني أساعد في بناء عقلية هذه الفتاة اليانعة، وتأخذه هي فَرِحة به، وتدخل حجرتها بغنيمتها، وتحتضنه بين ذراعيها وكأنها تحتضن الدنيا بأسرها، وأنظر إليها أنا في أسىً وحزن، وأعجب للفرق الكبير بينها وبين زوجتي.. بينها وبين مريم التي تكره اسم الكتب، وتنفر حتى من النظر إليها.

ومرَّت الأيّام، وفوزية تعيش بيننا: أنا، ومريم، كأنها واحدة منا، لا فرق بيننا وبينها. وكلّ يوم يمرّ، أكتشف فيه شيئاً جديداً تمتاز به فوزية عن مريم: اكتشفت فيها- بالإضافة إلى حبّ المطالعة والسعي الحثيث للاستزادة من المعلومات العامّة- رغبتها الملحّة في النقاش، مناقشة كلّ مشكلة تعترض حياة البشر، وأكتشفت إلى جانب ذلك تحرُّر عقلها الذي تحكم به على الأشياء التي تصادفها، وتحرُّر فكرها الذي تفكِّر به في شتّى الأمور والأوضاع، واكتشفت نظافة آرائها التي تريد أن تنفِّذها في قابل أيّامها، وأن تسير عليها في رحلتها الحياتية التي كتبت عليها.

اكتشفت في فوزية أشياء كثيرة تقرِّبها إليّ، وتدنيها مني، وتلصقها بي.. وجدت فيها كلّ الأشياء التي كنت أبحث عنها في مريم، منذ سنوات، منذ أن تزوّجتها، بل قبل أن أتزوَّجها.

عرفت، مع مرور الأيّام وتتابعها، أن هذه الفتاة.. أن فوزية، فتاة الخامسة والعشرين، التي لم تضيِّع سنوات عمرها هباءً في التشبُّث بالسخافات، والتعلَّق بالترَّهات، والاعتقاد بالأكاذيب.. هذه الفتاة التي تعيش معي.. في بيتي، ولا يفصلها عني سوى جدار صفيق من الآجر، إنما بعثتها الأقدار من هناك، من بلادها، لتكون القبس الذي ينير أمامي الطريق المظلم الذي أتخبَّط في دياجيره، على غير هدى، من يوم وُجِدت في هذه الحياة.

بدأت أشعر فيما بيني وبين نفسي، أن هذه الفتاة السمراء التي تشبه زوجتي إلى حَدّ بعيد، وليس هناك من خلاف بينهما سوى أن هذه أكثر امتلاءً من مريم، ومريم أكثر بياض بشرة من فوزية، لدرجة أن كثيرات كنّ يسألن زوجتي قائلات: (هل هذه شقيقتك؟).. بدأت أشعر أن فوزية

أقرب إلى عقلي من مريم، وأن فوزية تفهمني، رغم حداثة عهدها بي، أكثر ممّا تفهمني مريم التي قضيت معها سنوات، أنجبت خلالها لي ولداً.. وأن مريم تستسلم لي من غير مقاومة، وتسلِّم بآرائي وأفكاري، دون نقاش، لاقتناعها بصحّة ما أقول، لا لإيمانها بصواب ما أفكِّر به، بل رغبة منها في قفل باب النقاش بيني وبينها. أمّا فوزية فشيء آخر يختلف كثيراً عن مريم.. فوزية تشعر بوجودها، أمّا مريم فلا، لأنها لم تحسّ بحرِّيَّتها مطلقاً، إنما تحسّ، دائماً، أنها مكبَّلة بأغلال، مقيَّدة بسلاسل تجذبها إلى الخلف، كلّما حاولت الزحف إلى الأمام. والإنسان لا يشعر بوجودها كجزء مهمّ في هذا الوجود، أمّا فوزية فتشعر بوجودها، وتعتزّ بهذا الوجود الذي تدرك أنه لم يخلق لمجرَّد العبث، لذلك كانت لا تسلِّم بشيء أقوله، إلّا بعد أن تناقشني فيه، وبعد أن تحاسبني عليه حساباً عسيراً، قد لا يقبله ولا يطيقه غيري من الرجال الذين تعوَّدوا فرض إراداتهم على النساء، والظهور أمامهنّ بمظر القوّة في كلّ شيء، أمّا أنا فأرحب به وأتقبّله بصدر رحب ونفس متفتِّحة، فأنا نفسي لا أريد أن أقتنع أو أحاول إقناع غيري برأي ما، إلّا بعد تأكُّدي من صحّته وصوابه، وهذا شيء لا يتأتّى إلّا بعد النقاش الدقيق والحساب العسير. وقد شعرت فوزية، أو لمست هذه النقطة؛ نقطة القوّة أو الضعف في نفسيَّتي، فأرادت أن تستغلَّها، لا لصالحها فحسب، بل لصالحي أنا، أيضاً؛ فقد عرفت هذه الفتاة أنني أحبّ من يناقشني ويحاسبني، في كلّ قول أقوله، وفي كلّ رأي أبديه، وفي كلّ فكرة أعرضها، وعرفت-أيضاً- أنني لست من الذين يتهرَّبون من الإقرار بخطئهم والاعتراف به، إذا أخطأوا، بل أدركت أنني أتقبَّل لفت نظري إلى نقطة ضعفي، بيسر وسهولة، فأخذت تجلس معي ساعات طويلة، من الليل والنهار، تناقشني وتحادثني في شتّى المواضيع،

خاصّة ما كان منها متعلّقاً بالنواحي الاجتماعية في البلاد، وتحاول أن تقارن، في كثير من الحالات، بين مستوى تفكيرنا، هنا في بلادنا، ومستوى تفكيرهم، هناك، في بلادهم. ورأيت أنا- بدوري- أنها فتاة لازالت في حاجة إلى التوجيه، فأخذت على عاتقي مهمّة مساعدتها ومسايرتها، ما دامت تتمتَّع بقابلية، قَلَّ أن تجدها في غيرها، فجعلت من نفسي معلِّماً ومرشداً وموجّهاً لها، في كثير من المواقف التي تعترض طريقها، ووجدت فيها قابليّة لتحمُّل آرائي التي يراها بعضهم آراء متطرِّفة، لا يمكن تطبيقها في هذا المجتمع، أمّا فوزية فقد كانت، بعد النقاش والاقتناع، تصل معي إلى نتيجة.. إلى نقطة نتَّفق عندها، وغالباً ما تكون هذه النقطة هي الموافقة على صواب رأيي.

أذكر أنها قالت لي، ذات يوم: «لو كنت من بلدك، يا أستاذ سليم، لاستطعت أن أتعاون معك على تحقيق كثير ممّا تنادي به من آراء وأفكار تقدُّمية متحرِّرة، والتي يراها غيرك متطرِّفة مندفعة».

بدأنا: أنا، وفوزية، نقضي معظم أوقاتنا، خاصّة يوم الجمعة، داخل حجرة مكتبي، نتناقش، ونتحادث في شتّى الأمور ومختلف المواضيع، وكانت مريم تجلس معنا تنظر إلينا، وتستمع إلى مناقشاتنا التي تحتدّ، تارةً، إلى أبعد الحدود، وتهدأ، تارةً أخرى إلى درجة الاتِّفاق، فتهزأ بنا، وتضحك علينا، وتستخفّ بعقولنا، وتأسف على أوقاتنا التي نضيِّعها في نقاش، لافائدة منه ولا خير فيه، ثم تقوم وتذهب إلى حجرة نومها وتتركنا فيما نحن فيه من (كلام فارغ)، لا يهتمّ به إلا الحالمون الخياليون أمثالنا، أنا وفوزية.. كانت مريم تقول لي، في بعض المرّات:

– أنت تحلم، يا سليم.

– كيف؟

– لأنك تحاول المستحيل؛ إن القوم هنا لا يفهمونك، ولن يتَّبعوك أبداً. إنك تحاول أن تفرض عليهم آراء لم يجدوا عليها آباءهم ولا أجدادهم. إنك تتعب نفسك، وتسير وراء سراب خادع.

– ما دمت مؤمناً بصواب آرائي، فلا بدّ أن يأتي يوم يقتنع فيه قومي بصلاحية هذه الآراء.

– إن فوزية هذه، تزيد في خيالاتك وأوهامك. إنها فتاة من غير هذا البلد، والحياة في بلادها غيرها هنا.

– بل قولي إن القوم هناك غيرهم هنا. هناك، يحكمون على الأشياء بعقولهم. وهنا، يحكمون عليها بما ورثوه.

وهنا، تدعني مريم وشأني، وتذهب في حال سبيلها، وهي تشعر– لا شكّ– بالأسف والحسرة على هذا الزوج الخيالي الذي ابتُليت به، هذا الزوج الذي لا يقنع بما يجد، إنما يحاول أن يجعل الأمور كما يريد.

تكرَّرت مقابلاتي وجلساتي ومناقشاتي مع فوزية. وفي كثير من المرّات، عندما لا تجد ما نتناقش فيه، كنا نتناول قصّة من القصص فأقرؤها أنا أوَّلاً، وأكوِّن حولها رأياً أسجِّله على ورقة، ثم تقرؤها هي وتسجِّل رأيها في ورقة أخرى، ثم نجلس نتناقش في القصّة، وكلّ منا ينظر إليها من زاويته الخاصّة، ويصدر عليها حكمه، بحسب رأيه الخاصّ. وشيئاً فشيئاً، بدأت

أُعجب بفوزية. بدأت هذه الفتاة تدخل قلبي عن طريق عقلي، بدأت تحتلّ مكانها من وجداني، عن طريق تفكيري. وهنا، اكتشفت جمالها، جمال خلقتها بعد أن اكتشفت جمال عقلها. إنها حلوة جميلة، خفيفة الروح، عذبة الحديث، واسعة التفكير، قويّة الحجّة. وعجبت- أوَّل الأمر- كيف بدأت أنظر إلى فوزية من خلال هذه الزاوية!

لماذا أنظر إليها من زاوية غير الزاوية التي تعوَّدت أن أنظر إليها منها؟ هل هذه هي مبادئ الحبّ التي يقولون عنها؟ هل اكتشفت فيها أشياء حبَّبتها إلى قلبي؟ هل يمكنني أن أحبّ هذه الفتاة؟ وكيف أحبّها وأنا متزوِّج ولي ولد، ولا أشعر بأيّة كراهية نحو زوجتي؟ قد لا أحبّ زوجتي، لكن ذلك لا يعني أنني أكرهها وأحاول التخلُّص منها؛ فأنا لا أمقتها بل أحسّ نحوها بعطف وبشفقة، وشفقتي عليها تبعثني على احترامها، ومحاولة عدم جرح كبريائها. لقد اعترفت، فيما مضى، بيني وبين نفسي، بأن مريم ضحيّة.. تماماً، مثلي أنا، واعترفت بأنني أعطف عليها، لأنني أعطف على الضحايا وأشفق لحالهم.

كيف يمكنني أن أحبّ هذه الفتاة؛ وأنا أعلم، مقدَّماً، استحالة إمكانية زواجي بها؟! لا يمكنني أن أتزوَّجها، مهما كانت الأحوال، لأنني- أوَّلاً- لا أستطيع أن أطلّق زوجتي البريئة التي لا ذنب لها، ولأنني- ثانياً- لا أستطيع أن أجمع بين امرأتين، في وقت واحد، فأنا لست من أنصار الزواج بأكثر من واحدة.

فكيف أحبّ هذه الفتاة؟ وكيف أدفع بها إلى هاوية حبّ فاشل، لا أمل فيه ولا رجاء منه؛ وهي بمثابة الأمانة التي وضعت في عنقي، يوم سلَّمها لي

والدها وديعة بين يدي؟

هي يجوز لي أن أخون الأمانة، وأنقض العهد؟ إن هذه الفتاة غريبة في هذه الديار، وحيدة، لا سند لها ولا مُعين سوى والدها الذي سَلَّمها لي وتركها عندي بمنزلة الأخت، وهي في حاجة إلى من يحميها ويذود عنها، وليس هناك من أحد أحقّ بهذه المهمّة سواي، فكيف، بعد كلّ هذا، يجوز لي أن أحبّها، وأن أُسكِنها قلبي، الذي ليس لي ولا لها حقّ التصرُّف فيه؟

هل يمكنني أن أحبّ فوزية، وأنا متزوِّج من مريم؟ وماذا يكون مصير هذا الحبّ، إذا كان حبّاً فعلاً؟ وما نتيجته؟ ما آخرته؟ ما نهايته؟.. أسئلة أعْيَتني الإجابة عنها.

ثم، هل فوزية تحسّ، وتشعر نحوي بمثل ما أشعر، وأحسّ به نحوها من عاطفة متأجِّجة؟ وماذا تقصد بهذه النظرة المتوسِّلة، بهذه البسمة العذبة التي تستقبلني بها، بهذه الجلسات الطويلة والأحاديث المشوِّقة؟ هل هو الحبّ تسرَّبَ إلى قلبها كما تسرَّبَ إلى قلبي؟

هل هذه هي مبادئه؟

هل هذه هي إشاراته ونداءاته؟.

من يدري...؟

وانتابتني حيرة مريبة، وأصبحت في دوّامة من أمري: لا أعرف كيف أتَصرَّف، ولا أعرف ماذا أفعل، إلى أن اهتديت إلى فكرة، رحت أقنع نفسي بها: رحت أقنع نفسي بأن ما بيني وبين فوزية لا يمكن، أبداً، أن يكون حبّاً.

لابدّ أنه شيء آخر أجهله، فأنا أشعر شعوراً عميقاً بأنها أخت لي، فلابد أن يكون ما بيننا، من حبّ وعاطفة، مبعثه شعور الأخوّة التي جمعت بيننا، فهي يتيمة، وأنا مثلها يتيم، وقد جمع بيننا اليتم، وهي غريبة وحيدة في هذه الديار، وأنا- أيضاً- أشعر بأنني غريب في هذا المجتمع وبين هؤلاء القوم الذين لا يفهمونني، وقد جمع بيننا الشعور بالغربة والوحدة، وهي تحمل أفكاراً تقدُّمية تحرُّرية، وأنا أحمل مثل هذه الأفكار، وقد جمع بيننا اتِّحاد الهدف ووحدة الغاية.

هذه هي العوامل التي جمعتنا وقرَّبتنا؛ و- إذن- إن ما بيننا؛ أنا وفوزية لا يمكن أن يكون هو الحبّ الذي يعرفونه ويتحدَّثون عنه، وإنما هو حبّ من نوع آخر، منشؤه اتِّحاد الهدف، ووحدة الغاية وتقارب الآراء والأفكار.

هذا ما أقنعت به نفسي، أو ما حاولت أن أقنع به نفسي حتى لا أقع في المحظور، ولا أعترف بالجريمة. وكانت فوزية تحاول أن تقوم بالدور نفسه؛ أن تنفي صفة (الحبّ) عن العلاقة التي نشأت بيننا، نحن-الاثنين، وتحاول أن تجعلها علاقة عادية أقرب إلى علاقة الأخ بأخته، منها إلى علاقة الحبيب بحبيبته، فجاءتني ذات يوم تقول، في إصرار:

لديّ اقتراح مهمّ، يا أستاذ سليم.

- ما هو هذا الاقتراح المهمّ، يا فوزية؟

- ما رأيك لو ناديتني بلفظ (أختي فوزية)، وناديتك بلفظ (أخي سليم)؟

- اقتراح وجيه، لا اعتراض لي عليه.

وصمتت فوزيةبرهة، كأنها تفكِّر، ثم عادت تقول وكأنها تذكَّرت شيئاً نسيته:

- لقد سحبت اقتراحي.

- لماذا؟

- لأن الأخوة في الأُسَر الفرعونية القديمة..

وسارعت أنا أتمِّم الجملة التي لم تكملها:

- كانوا يتزاوجون فيما بينهم.

واصطبغ وجهها بحمرَة قانية محبَّبة، فلم تجب، بل اكتفت ببسمة رقيقة لطيفة، فأخذت بيدها دون شعور ومن غير تفكير، وقلت:

- وأنا عندي اقتراح آخر.

- ما هو؟ قله..

- أن تناديني باسمي، وأناديك باسمك مجرَّديَنْ: تناديني أنت بـ(يا سليم)، وأناديك أنا بـ(يا فوزية)، دون حاجة بنا إلى اللقب.

- ماذا تقصد من هذا الاقتراح؟.

- أقصد رفع الحواجز بيننا، وعدم الشعور بالحرج في أحاديثنا.

ومن يومها، بدأت تناديني (سليم) وأنا أناديها (فوزية)، ولم تعترض مريم على هذا التطوُّر في علاقتنا، فما كانت تهتمّ بمثل هذه الأمور التافهة،

كما تزعم.

ومرّة أخرى، دخلت فوزية حجرة مكتبي، وجلست قبالتي، وبعد تفكير قصير قالت:

أستاذ سليم، لديَّ سؤال.

وقبل أن تكمل جملتها أجبتها على الفور:

- أوَّلاً، اسحبي كلمة (أستاذ). لقد اتَّفقنا على التخلُّص من الألقاب.

- معك حقّ.. لديّ سؤال، يا سليم، أودّ أن أوجِّهه إليك.

- اسألي ما بدا لك، يا فوزية.. ماذا يحيِّرك؟

- إنه سؤال بسيط يتعلَّق بإحدى صديقاتي. إنها مشكلة فتاة ليبية تعرَّفت إليها.

- وما هي هذه المشكلة؟

- أفضِّل أن أوجِّهها إليك مكتوبة، وتجيبني عنها تحريريّاً.

- لا أمانع في ذلك..

وناولتني ورقة مطويّة، وخرجت مسرعة تغادر الحجرة، دون أن تنتظر مني فضّها وقراءتها. وعندما فضضتها، بدأت أقرأ فيها «أيُّهما أفضل، بحسب رأيك، لفتاة تحبّ شابّاً ليبيّاً مثلها حبّاً قويّاً صارماً، وكان هذا الشابّ يبادلها المشاعر نفسها، ولكنه، فجأةً، سافر إلى الخارج لإتمام

دراسته. ومنذ سنة، تقريباً، انقطعت أخباره عنها، فتقدَّم إليها شابّ آخر يطلب يدها.. فهل توافق على إتمام هذه الخطبة، أم تنتظر عودة فتاها الغائب؟».

وفكَّرت في الأمر قليلاً، ثم أخذت القلم، وبدأت أكتب لها هذا الردّ: «يقول المثل العامّيّ «عصفور في اليد ولا عشرة فوق الشجرة». ومادامت آخبار الفتى الأوَّل قد انقطعت منذ سنة، فلابدّ أن يكون المانع أحد شيئين: إمّا أنه لا يبادلها الحبّ، أو أنه نسيها، ولم يعد يذكرها. وفي كلا الحالتين، من الحمق الاستمرار في انتظار عودته إلى ما لا نهاية، ومن يدري ماذا تكون نهاية هذا الانتظار. أنا أفضّل لها أن تَقْبل اليد الممدودة إليها، إذا تأكَّدت من صلاحيَّتها».

وناديت فوزية، فسلَّمتها الردّ داخل مظروف، فوعدتني بأن تسلِّمه إلى صاحبته، صباح الغد.

ومرَّت الأيّام، يتبع بعضها بعضاً، وأنا أظنّ أن ما بيني وبين فوزية، لا يتجاوز حدود الحبّ الأخويّ، الذي يحدث بين الأخ وأخته، لكن الأيّام كشفت لي خطأ هذا الاعتقاد، فتأكَّدت أن ما بيننا هو الحبّ.. والحبّ العنيف الصارم.. الحبّ الذي لا يرحم الإنسان، ولا يتركه يشعر بالراحة، ويدفعه إلى عمل أيّ شيء في سبيل من يحبّ.

بعد مرور عدّة أيّام على موضوع السؤال والجواب، اكتشفت أشياء جديدة؛ اكتشفت أن ما بيني وبين فوزية لم يكن إلّا الحبّ القويّ العاصف، الذي لا يعترف بالعقبات، ولا يهتمّ بالقيود.. تأكدتُ أنني أحبّ فوزية، وأنها تبادلني هذا الحبّ، ولم يكن شيء يحول دوننا ودون الإفصاح عنه، إلّا

خوف كلّ منا من الآخر: أنا خائف من أن تكون فوزية لا تشعر نحوي بمثل ما أشعر به نحوها. وكنا، نحن- الاثنين، بالإضافة إلى هذا الخوف من مشاعرنا، نشعر بنوع آخر من الخوف.. كان كلّ واحد منا يحسّ ويشعر، في قرارة نفسه، يهول وفظاعة هذا الحبّ الذي وُلِد وترعرع بين قلبينا؛ هذا الحبّ الذي كنّا نعلم، مقدَّماً، أنه فاشل، بل أنه حبّ محرَّم، لا لشيء سوى لأنني متزوِّج، ولي ابن، والثاني في الطريق، وحرام أن أطلِّق زوجتي من أجل هذا الحبّ، ولأنها- أيضاً- فتاة لا ترضى، أبداً، أن تكون سبباً في خراب بيت، وطلاق زوجة. كلّ ذلك في سبيل شيء يسمّونه الحبّ.. إنها أسمى من أن ترضى بالنزول إلى هذا المستوى الوضيع.. وإذا لم يعصمها علمها وثقافتها وسعة اطِّلاعها عن مثل هذه التصرُّفات الصبيانية، فما فائدة الوقت الذي أضاعته في الدرس والتحصيل؟

كانت فوزية تحسّ، تماماً، كما أحسّ أنا، بأننا وقعنا في المحظور، وارتكبنا خطأً فاحشاً جسيماً، في اندفاعنا مع تيّار هذا الحبّ الذي لا يمكننا، الآن، وبعد فوات الوقت، أن نتراجع عنه.

كنا نحسّ بأننا أخطأنا الطريق السويّ، وارتكبنا جريمة في حقّ أنفسنا، وفي حقّ غيرنا.. صحيح أننا أحرار في تصرُّفاتنا؛ لأننا بشر، ولأن سائر البشر أحرار في تصرُّفاتهم التي يمارسونها في حدود حرِّيّاتهم، ما لم تتعارض مع حريّة الآخرين، لكن هذه الجريمة التي ارتكبناها: هل نحن مسؤولان عنها؟، وكيف نكون مسؤولَيْن، ونحن لم نرتكبها بمحض إرادتنا، ولم نأتها باختيارنا؟

لقد كنّا مدفوعين دفعاً إلى ارتكاب هذه الجريمة؛ جريمة الحبّ، إذا صح

أن الحبّ يُعتَبر جريمة، في بعض الحالات، فقد كانت محرومة من الحبّ، وكنت متعطِّشاً مثلها للحبّ. وهبتني كلّ عواطفها دون أن تدري، ومن غير أن تشعر بعواقب هبتها.

فهل يمكننا، الآن، أن نتراجع، بعد أن قطعنا كلّ هذا الشوط الطويل في طريق حبِّنا؟

وهل يمكننا أن نقف- على الأقلّ- عند النقطة التي نحن فيها، الآن؟

هل نستمرّ في اللعبة؛ لعبة الحبّ، إلى آخر الشوط، أم نقف حيث نحن، الآن؟

وإذا أردنا أن نقف أو نتوقَّف، فهل نستطيع ذلك؟

لقد أفلت الزمام من أيدينا، ولم يعد في مقدورنا الوقوف أو التوقُّف، وكذلك، ليس في استطاعتنا الاستمرار إلى نهاية المطاف، لأننا لا ندري ماذا يمكن أن تكون النهاية.

إذن، لم يبقَ أمامنا سوى حلّ واحد: أن نستمرّ هكذا، حتى نصل إلى نقطة ما، نتَّفق على الوقوف عندها، لأن الاستمرار إلى نهاية الشوط معناه ختام القصّة بإحدى نهايتين: إمّا أن أتزوَّج باثنتين، أو أطلِّق زوجتي.

كنت، أحياناً، أحسّ بهذه الإحساسات، وأشعر بهذه المشاعر، لكنني كنت أدرك- في الوقت نفسه- أن المجتمع الذي أعيش فيه، والذي أنا خاضع له، شئت أم لم أشأ، لا يوافقني، أبداً، على فكرة الطلاق والزواج، من جديد، كما لا يوافقني على فكرة الجمع بين زوجتين. فنظرياتي ومبادئي تتنافى

مع الزواج بأكثر من واحدة، وعلى الزواج أكثر من مرّة واحدة...

ثم هناك نقطة أخرى مهمّة جدّاً؛ هناك مريم التي رضيت، ذات يوم، أن أكون لها زوجاً مدى الحياة، وقبلت أنا- عن طواعية واختيار- أن تكون زوجتي ورفيقة رحلتي مدى الحياة. مريم هذه، ماذنبها؟ ما جريمتها التي تسوِّغ لي تطليقها والتخلُّص منها، هي ومحمود ابني، والولد الثاني الذي تحمله في أحشائها؟

ثم، كيف سيكون مصير ابني؟ ومن سيضمن له الحبّ والحنان والرعاية من زوجة الأب، ولو كانت (فوزية)؟ وهل أضمن له أباً آخر غيري يكفله، ويرعاه، ويحنو عليه، ويسهر على تربيته وتنشئته بعد رحيل والده الحقيقي؟

بسبب كلّ هذا، كتمت حبّي لفوزية، ولم أبُح لأحد به، حتى فوزية نفسها لم أصارحها بما يعتمل في قلبي.

كنت أحسّ بحبّ قويّ عاصف، يدفعني تجاه فوزية، وكنت أشعر أن فوزية نفسها تحمل نحوي مثل ما أحمل نحوها، لكن كلانا التزم جانب الصمت والكتمان، فلم يفصح عن حبّه، رغم العذاب الذي يقاسيه، ويتجرَّع ويلاته، يوماً بعد يوم. إلى أن كان يوم من أيّام سنة (لم أعد أذكرها، الآن)، عندما كنت، أنا وفوزية، جالسَيْن في حجرة مكتبي نتحادث حول كتاب صدر حديثاً لأحد أدبائنا الليبيين، وطال بنا الحديث وتشعَّب، وخرج عن نطاق الكتاب والكاتب، ومرّ الوقت دون أن تشعر به. وعندما أردت أن أخرج إلى الشارع، بعد أن تذكّرت موعداً بيني وبين أحد الأصدقاء، قمت أستأذن من فوزية وأمدّ يدي مصافحاً، لكنها ما

إن احتوت راحتي بين أصابعها حتى أمسكتها بعنف، وأخذت تضغط عليها بشدّة وقسوة، وضغطت أنا- أيضاً- على أصابعها الناعمة، فشعرت بحرارة تسري من يدها إلى يدي، وتتسرَّب إلى كلّ شريان من شراييني، فتلهَّب دمي في عروقي، وشعرت باللهيب يشمل كلّ ذرّة من ذرّات كياني، وتمنَّيت لو استمرّت تلك الفترة إلى الأبد.. مدى الحياة، غير أنني سحبت يدي بسرعة، عندما سمعت صوت مريم يناديني من الداخل.. سحبت يدي وغادرت المنزل. خرجت إلى الشارع ودمائي كلّها تغلي في عروقي.. شراييني ملتهبة.. رأسي يدور.. وعجبت كيف يكون، لمجرَّد لمسة يد، كلّ هذا السرّ.. كلّ هذا الأثر.. لقد بدأت أشعر بأنني أصبحت إنساناً آخر غير الذي كنته من قبل. صحيح أنها كانت مجرَّد لمسة يد، وضغط أصابع، لكن ما أعقب تلك اللمسة، وما نتج عن ذلك الضغط الخفيف، كان شيئاً آخر، شيئاً لم أكن أتصوَّره، أو أتصوَّر حدوثه.

ومرَّت الأيّام بعد ذلك، وأنا أعيش في دوّامة من أمري: لا أعرف كيف أتصرَّف، ولا أعرف بمَ أتصرَّف.. كلّ ما استطعته هو أنني تحاشيت النظر إليها في خلوة.. تحاشيت الخلوة مع فوزية، لكنني- رغم ذلك- كنت أقاوم إحساسي بالانجذاب نحوها.. كنت أحسّ، في قرارة نفسي، أن هناك قوّة خفيّة لا تقاوَم تدفعني إليها، بقدر ما تبعدني عن مريم، غير أنني قاومت إلى أن انهارت قواي، ولم يعد في إمكاني الاستمرار في المقاومة؛ فذات يوم، وبينما كانت مريم في الحمام، وكنت في مكتبي، إذا بفوزية تدخل، وكانت تحمل في يدها كتاباً تقرؤه، فسألتها:

- ما هذا الكتاب، يا فوزية؟

- إنها قصّة ممتازة للأديب (...)

- أسْمِعينيها، إذا كانت ممتازة. كما تقولين.

فأخذت تقرأ بصوت مسموع، وكانت القصّة تتحدَّث بلسان شابّ يحبّ فتاة، غير أنه لم يفصح لها عن حبّه، ولم يظهر نحوها عواطفه، لأنه كان خائفاً ألا تكون تشعر نحوه بمثل مشاعره. وبعد أن قرأت فوزية بضع صفحات، بصوتها الساحر، توقَّفت، فجأةً، عن القراءة لتسألني:

ما رأيك في هذه القصّة، يا سليم؟

- إنها ممتازة حقّاً.. إنك صاحبة ذوق رفيع، يا فوزية.

- أنا لا أسالك من حيث بناء القصّة أو أسلوبها.

- إذن، عَمَّ تسألين؟

- ما رأيك في شخصية بطلها المغوار؟؟ أعتقد أنه جبان رعديد..

- كيف؟

- إنه يحبّ فتاته حبّاً قويّاً عارماً، ثم يخاف أن يصارحها بعواطفه نحوها، وتعلُّقه بها.. أليس هذا هو الجبن بعينه؟ إنني لا أدري سبباً لكلّ هذا الخوف وهذا الجبن!

- لكنني أرى عكس رأيك، فإن ما يمنعه عن مصارحتها بحبّه، إنما هو عدم معرفته لشعورها نحوه، فهو يخاف أن تكون مشاعرها ليست كما يريدها هو.

- وما ضرُّه لو تشجَّع، ولو مرّة؟ إن الواجب يفرض عليه ذلك، لأنه هو الرجل، وهي المرأة.

وخرجت مريم من الحمّام، فقطعنا حديثنا؛ حديث الحبّ الذي بدأنا نسطِّر قصّته، وأخذنا نخوض في مواضيع أخرى من الأحاديث التي تروق لمريم، وتنسجم معها، أحاديث لا علاقة لها بما كنّا فيه غارقَيْن. وفي غضون ساعات قليلة، رحت أكتب إلى فوزية أوَّل رسالة مني، فقلت:

«اسمحي لي- يا فوزية- أن أناديك (ياحبيبتي)، فإن ما حدث بيننا، اليوم، لم أجد له أيّ تفسير سوى أنه الحبّ الذي ربط بين قلبينا، وقد دفعني هذا إلى مصارحتك بحبّي وعواطفي نحوك، فأنا أحبّك حبّ الموت، ولا يمكنني، أبداً، بعد اليوم، الاستغناء عنك أو الحياة بدونك.

لقد كنت أتمنّى منذ أن عرفتك، أن تأتي الساعة التي أضمّك فيها. وها هي ذي أمنيتي قد تحقَّقت، فأرجو ألا تكوني غاضبة مني. لقد كنت خائفاً منك.. خائفاً من طردك إيّاي، خاصّة وأنت تعلمين أنني متزوِّج، وأنني أب، ولكن ما حدث بيننا اليوم، وهو ماشجَّعني على اتِّخاذ الخطوة الأولى من جانبي (الخطوة الأولى لابدّ أن تكون من جانب الرجل، لأنه هو الرجل...).

أنت حبيبتي، يا فوزية، وأنا أحبّك رغم كلّ الظروف التي تحيط بنا، ورغم اختلاف وضعَيْنا، فهل أنت تبادلينني هذه الإحساسات؟ هل تشعرين نحوي بما أشعر به نحوك؟».

وفي اليوم التالي، بينما كنا نتناول وجبة الإفطار، أنا وهي ومريم، سلَّمتها

الرسالة، ففضَّتها دون إبطاء، وألقت عليها نظرة خاطفة، بينما كنت أتابع ما يعتري ملامح وجهها من إشارات وأمارات، كنت أحسّ، في أثناء ذلك، أن قلبي يخفق بقوّة. كنت، وقتها، أشبه بالتلميذ الذي ينتظر نتيجة الامتحان، أو المتَّهم الذي ينتظر ما تنطق به شفاه القاضي. ومرّت فترة، خلتها أطول من الحياة، ثم رفعت فوزية رأسها وهي تبتسم، وقالت:

– أنا متَّفقة معك في هذا الرأي.

وقبل أن أجيب أنا، سألتها مريم:

– أيّ رأي هذا؟

وقبل أن ترتبك فوزية، أسرعت أنا لأقول:

– تناقشنا، أمس، حول قصّة صدرت حديثاً، ولم نتَّفق فيها حول رأي، فقرَّرنا أن يكتب كلّ منا رأيه ويقدّمه إلى الثاني، وها أنت ترينها، اليوم، توافق على رأيي.

زمَّت مريم شفتيها في تأفُّف، وقامت تغادر الحجرة، وهي تقول:

– مساكين، أنت وهي، تقضون أوقاتكم في مناقشات فارغة.

وخرجت مريم من حجرة الأكل، لتتَّجه إلى حجرة المكتب. وبعد قليل، سمعت صوتها تحادث إحدى صديقاتها في التليفون، فشجَّعني ذلك على توجيه سؤال إلى فوزية، فقلت متسائلاً:

– أيّ رأي هذا الذي تتَّفقين معي حوله؟

- رأيك في القصّة.

- أيّة قصّة؟

- القصّة التي أخبرت بها السيِّدة مريم.

- أشهد، وأقرّ، وأعترف أنك شيطانة، يا فوزية.

ونظرت فوزية نحوي نظرة كلّها نداء وإغراء... ولم نفق من سعادتنا تلك إلا عندما طرق سمعنا صوت مريم وهي تودِّع صديقتها في التليفون، فعدنا إلى جلستنا الأولى وكأن شيئاً لم يحدث بيننا، وإن كنت خائفاً أن يفضحنا الانفعال البادي على وجهينا، أمام مريم.

ومرّ ذلك اليوم.. ومرّت بعدة أيّام، وانقضت أشهر، بل أربع سنوات ونحن- الاثنين- نستقي كلّ يوم من معين حبِّنا الذي كنّا ندرك أنه لن يدوم طويلاً... كنا نتقابل كلّما كانت مريم غير موجودة.

وتكرَّرت مقابلاتنا، وكنّا في كلّ مرّة نشعر بأن كلّاً منّا خُلِق للآخر، ولا يمكن لأيّ منا أن يعيش بعيداً عن الآخر. كلّ يوم يمرّ كان يزيد حبّنا قوّة، ويزيدنا ترابطاً، ويزيدنا انسجاماً. جاءتني ذات يوم تقول:

- ما رأيك في جولة في ضواحي المدينة، وقضاء فترة تحت الاشجار، بين الورود والرياحين؟

- إنها فكرة جميلة، لو تتحقَّق!!

- وما يحول دوننا ودون تحقيقها؟ إن شيئاً في الوجود، مهما عظم، لا

يمكنه أن يقف حائلاً دون رغباتنا.

- إن تنفيذ هذه الفكرة يحتاج لوجود سيّارة، وأنا لا أملك سيّارة كما تعلمين.

- السيّارة أمرها أبسط ممّا تتصوّر.. يمكننا أن نؤجِّر (تاكسي) ينقلنا إلى حيث نريد، ويعود بنا في الوقت الذي نحدِّده.

- خلاص.. اتَّفقنا.. وليكن موعدنا يوم الجمعة القادم.

وكان يوم الجمعة، فقلت لمريم إنني سأتناول غدائي خارج البيت، وقالت فوزية إنها مدعوّة من إحدى صديقاتها، ثم خرجت أنا- أوَّلاً- واتَّجهت إلى أقرب محطّة (تاكسيّات)، ثم، لحقتني فوزية، فركبنا أوّل سيّارة صادفتنا، وقلت للسائق: «طريق السواني.. كيلو متر9». وهناك، نزلنا في مزرعة إيطالي، أعرفه منذ زمان، تربطني به رابطة صداقة قديمة، سألني صاحب المزرعة: «من هذه التي معك؟ هل هي زوجتك؟». قلت: لا.. بل هي لبنانية جاءت تزور ليبيا، فرأيت الواجب يدعوني للتفسَّح معها.

وحمدت الله على هذه الكذبة الموفَّقة، فقد كان الإيطالي ممّن زاروا لبنان، فأخذ بوجّه أسئلة إلى رفيقتي عن لبنان، وهي تجيبه في صدق، ثم تركَنا بعد أن قال لنا: «إن المزرعة كلّها على حسابكم، ولا أحد سيزعجكم.. أمّا إذا احتجتم لأيّ شيء، فنحن على استعداد»، وشكرته قبل أن نبدأ جولاتنا في أنحاء المزرعة، تحت ظلال أشجار اللوز وبين الورود والرياحين، كما تمنّت فوزية، وتخيَّلت، ثم اخترنا شجرة زيتون ظليلة جلسنا تحتها، ومَرّ الوقت بنا سريعاً، إذ سرعان ما كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً،

دون أن نشعر، وجاءت سيّارة الأجرة في الخامسة، بحسب الموعد المتَّفق عليه، فقفلنا راجعين..

وتكرَّرت رحلاتنا هذه أكثر من مرّة.

أيّام قضيناها، حلوة ممتعة، لا نحسّ فيها بشيء سوى أنفسنا، ولا نشعر فيها بشيء غير حبِّنا، حتى حينما رزقت بابني الثاني (عبدالكريم)، لم أشعر بوطأة مَقْدمِه، فقد كنت، حينذاك، في ذروة حبّي... كنت منطلقاً أرتع في دنيا الحبّ، وكانت فوزية منطلقة معي هي الأخرى... لم تخطر في بالنا فكرة «إلا ونفَّذناها».

كانت فوزية تقول لي، في كثير من الأحيان، عندما تلاحظ من جانبي أيّ تردُّد أو هروب: «لا تفكِّر في شيء.. لا تخف عاقبة شيء». وكنت حينما أسمع منها هذه الكلمات، «أردّ قائلاً: «ولكنك- يا ملاكي- فتاة في انتظار الزوج»، فتردّ: أيّ زوج هذا؟ أنا لا اعترف بزوج لي سواك أنت.. أنت زوجي أمام الله وأمام نفسي.. لقد وهبتك قلبي وروحي وكياني.

بهذه الطريقة، استطاعت فوزية أن تنسيني كلّ شيء، وأن تستولي على كلّ ذرّة مني، فلم أعد أملك معها شيئاً من وجودي.. سلَّمتها نفسي وسلَّمتها قلبي، ولم أعد أفكِّر في شيء سوى الساعة التي أقضيها معها.. وبهذه الطريقة- أيضاً- قضينا أربع سنوات، بطولها وعرضها، كنا نحسّ خلالها بوجودنا لأننا كنّا نتمتَّع بحرِّيَّتنا.. أربع سنوات قضيناها في هذا الجوّ الممتع، نشعر، حينما نكون معاً، بأننا زوجان حقّاً، لا شيء ينقصنا أو ينقص حياتنا، وكنت أصارحها بكلّ شيء يتعلَّق بحياتي، وكانت هي تصارحني بكلّ شيء يتعلَّق بحياتها.. لم تخْفِ عني شيئاً، كبيراً كان أم

صغيراً، من حياتها الماضية.

أربع سنوات، شعرنا فيها بوجودنا، وأحسسنا فيها بحرِّيَّتنا. لم يقف شيء في طريق تمنُّعنا بحرِّيّة وجودنا.

وخلال هذه السنوات الأربع، عاهدتها أن أكفّ عن شرب الخمر، لأنها طلبت مني ذلك، وكنت أشعر، مضطرّاً لا مختاراً، أني ألبّي كلّ طلباتها.

كانت تقول لي:

– اسمع، يا سليم، أنا لم أشعر بكياني، ولم أشعر بوجودي وبأهمِّيَّتي في الحياة، بل لم أشعر بحياتي، إطلاقاً، إلا عندما تعرَّفت إليك أنت، وأحببتك أنت.

وكنت أردّ عليها:

– وأنا، يا فوزية، لم أشعر بوجودي كإنسان إلا بعد أن بعثك الله من بلادك، ولم أشعر بحياتي إلا بعد أن دخلتها أنت من باب الحبّ.

أربع سنوات طوال، ونحن نعيش في حلم ذهبيّ جميل، في عالم خيالي ممتع، فوق أرض أخرى غير هذه الأرض التي يعيش فوقها غيرنا من الناس. كانت تقول، أحياناً:

– قبل أن أعرفك، ياسليم، كنت أتمنّى أن يرزقني الله بزوج متحرِّر أستطيع أن أشعر بحياتي معه، وأحسّ بوجودي وحرِّيَّتي إلى جواره، وفي حِماه. وبعد أن عرفتك وعشت معك، تمنَّيت أن يكون زوجي مثلك أنت، تماماً، يؤمن بحرّيّة الآخرين، حتى أضع يدي في يده، وأحقِّق كلّ

أحلامي. ذلك كان أيّام زمان، أمّا الآن فإن شيئاً في الوجود لم يعد يهمّني، ولم يعد يشغل بالي، فشكراً للسماء، وشكراً لله الذي بعثك تضيء أمامي ظلمات الحياة... صحيح أن أفكاري واسعة، وأهدافي بعيدة فيما يتعلَّق بالحياة والإنسان، تلك التي أطمع في تنفيذها، يوماً ما، وآمل أن تساعدني الظروف على تنفيذها.. لقد أعطيتك، يا سليم، باختياري، ما أريد أن أعطيك، وأخذت أنت مني ما تريد أن تأخذ، وتأكَّد أنه حتى بعد زواجي، لو قدِّر لي أن أتزوَّج، في بلادكم، سأهبك وأعطيك الكثير.. الكثير جدّاً.. أكثر ممّا كنت تظنّ وتتصوّر، وأكثر ممّا أعطيك، الآن، يا ملاكي...

وبعد مرور كلّ هذه السنوات الأربع، جاءني والد فوزية يقول:

- أستاذ سليم..

- نعم؟

- لقد خطبت فوزية.

- من خطيبها؟

- أحد أبناء عمومتها، في بيروت.

- ما مستواه؟

- رغم أنه ليس متعلِّماً مثلها، حيث إن ظروف حياته لم تساعده حتى على إتمام دراسته الابتدائية، إلا أنه من لحمها ودمها. إنه أحد أبناء عمومتها.

- وهل قبلت فوزية هذا الشابّ؟ ما رأيها فيه؟

- لا أعتقد أنها تمانع.. ثم لا تنسَ أنها عبء ثقيل على كاهلي، ولابدّ أن أزوِّجها.

وشعرت بكلّ شيء ينهار أمامي، ورأيت النهاية التي كانت أخافها وأخشاها تتمثَّل لناظريّ حقيقةً عملاقة تهزأ بي وتسخر مني. تبدَّلَ أمامي كلّ شيء: الضياء أصبح ظلاماً، والنهار ليلاً.. كلّ شيء قد ضاع، كلّ حلم قد تبخَّر.. كلّ أمل قد تلاشى... ماذا بقي لي إن أُخِذت فوزية مني؟ هل يمكنني أن أعيش من غير وجود فوزية إلى جواري؛ فوزية التي، بفضلها، عرفت الدنيا، وعرفت العالم، وخبرت الوجود؟

وعدت إلى واقعي المؤلم.. واقعي المرير. لقد كنت في حلم.. في خيال، وها هي ذي الحقيقة تصدمني، والواقع يواجهني، ويتبخّر الحلم، وينزاح الخيال.

ودون أن أدري، انصرفت من أمام الرجل، من غير أن أقول له، ولو على سبيل المجاملة، كلمة (مبروك)، وأسرعت إلى البيت حيث اختليت بفوزية، وجلست معها نفكّر معاً في الموضوع.. جلست مع فوزية التي ملكت كلّ مشاعري.. جلست معها نبحث الموضوع من كلّ جوانبه، ونفكِّر فيه، وننظر إلى النتائج التي قد تترتَّب عليه؛ النتائج التي تترتَّب على حالتَي الرفض والقبول، إذا رفضت ماذا تكون النتيجة، وهل نتيجة هذا الرفض، يمكننا أن نتزوج؟ هل يجوز لنا أن نكوّن عشاً زوجياً، نحن- الاثنين- ترفرف عليه أجنحة السعادة والهناء؟؛ فأنا متزوج، وهذه حقيقة لا نستطيع إنكارها، وحقيقة أخرى لا يمكن تناسيها، هي أن زوجتي محسنة إليّ متسامحة معي، قد لا أكون أنا ومريم زوجتي متَّفقَيْن على كلّ شيء، كنتيجة لاختلاف نظريّتينا للحياة، حيث أنظر إليها أنا من زاوية، وتنظر إليها هي من زاوية أخرى.. أنا أرى الحياة شيئاً ثميناً يجب علينا ألا نضيِّعه وألا نفرِّط فيه، بل يجب أن نستغلّه لسعادتنا، ونتمتّع به إلى

آخر حدود المتعة، بينما تنظر إليها مريم نظرة تشاؤمية سوداء لا تريها فيها أكثر من كونها شيئاً تافهاً جدّاً، يجب عليها ألا نفرح بها ولا نوليها كثير اهتمام، وعلى أساس أنها شيء زائل لا قيمة له ولا وزن.

ولكن.. إن كلّ هذا لا يمكن أن يتَّخذ أساساً للتفريق بيننا، ولا يجوز، مطلقاً، أن يكون سنداً لي، وحجّة تخوِّلني تطليقها.

وأمام كلّ هذه الاعتبارات، على أيّ أساس يمكن لفوزية أن ترفض اليد الممدود إليها؟ ليس هناك أيّ أساس منطقيّ معقول، فأنا لا أطمع في الزواج منها ، وهي لا تنتظر الزواج بي.

الرفض، رفض فوزية لليد الممدودة إليها شئ غير معقول ولا مقبول. على أساس بحثنا أنا وفوزية موضوع زواجها، لم نجد أمامنا سوى حلّ واحد: ليس أمامنا غير موافقة فوزية على الزواج من الشابّ الذي تقدَّم إليها، وقبلت به مرغمة غير مخيَّرة.

ومرَّت أربعة أشهر.. كنّا خلالها ننهل من معين الحبّ قبل أن ينضب، ونرتوي من عينه الجارية بين أيدينا قبل أن تجفّ.

كنّا نلتقي كلّ يوم، ونتقابل.

كنت أختلق المعاذير لخروج مريم ومبيتها خارج البيت حتى أتمكَّن من الالتقاء بفوزية.

كنّا خلال هذه الشهور الأربعة كالمحكوم عليه، بالإعدام، الذي يحاول أن يملأ عينيه بمناظر الدنيا، قبل أن يفارقها إلى الأبد.

وتقرَّر سفرها بعد ثلاثة أيّام... ثلاثة أيّام فقط، اختليت بها في المنزل، وجلسنا وحدنا نندب حظَّنا، ونبكي حبّنا الذي كتب له الوأد قبل أن يكبر ويترعرع وينمو ويأتي أُكُله... وفي أثناء حديثنا، في يومنا التاريخي ذاك، قلت لها:

- رغم أنني متأكّد من استحالة زواجنا، ورغم أنني أعلم أنه لايمكننا أن نتزوَّج، وأن نكوِّن بيتاً معاً، لأننا لسنا أحراراً في تصرُّفاتنا، ولسنا أحراراً في أعمالنا... رغم كلّ ذلك فأنا لا أستطيع أن أتصوَّرك بين ذراعي أيّ رجل غيري أنا، إنني أريدك لي.. لي وحدي...

ونظرت نحوي نظرة كلّها حبّ وإخلاص وصدق، ثم قالت من بين دموعها:

- لا تخف من شيء يا حبيبي.. لا تخف من شيء، يا حياتي.. يا حبّي الكبير، والأوّل والأخير.. سوف لن أهبه شيئاً أكثر من جسد بارد.. عواطف ميِّتة.. لن أعطية أكثر ممّا يجب على الزوجة أن تعطي زوجها.. ستصلك الأخبار عني.. ستعلم كلّ شيء.. إنها أيّام قليلة، فقط، تفصل بيننا، ثم نعود لنلتقي، كما كنّا، وأكثر ممّا كنّا.. أيّام قليلة معدودة، ثم نعود إلى سابق عهدنا، وأنا أكثر حرّيّة معك وأكثر انطلاقاً.

وقلت، في لهفة:

- كيف... كيف نعود نلتقي كما كنّا، وأنت راحلة إلى بيروت؟

ابتسمت وهي تقول، في شبه همس:

- لقد احتطت لكلّ شيء، فقد طلبت من والدي أن يبحث لزوجي عن عمل هنا في بلادكم؛ حتى أكون، دوماً، قريبة منك، أقابلك وأتَّصل بك في كلّ وقت. ومنذ أسبوع واحد، فقط، جاءني والدي يبشِّرني بأنه قد عثر لزوجي على عمل مع إحدى شركات البترول، وأن زوجي وافق على المجيء إلى هنا، بعد مرور بضعة أيّام على زواجنا.. وهكذا ترى أنني سوف لن أبتعد عنك سوى أيّام قليلة.. قليلة جدّاً.. إن زواجي- كما ترى- شيء ضروريّ لنا، نحن- الاثنين- قبل غيرنا من الناس. إننا، الآن، مقيَّدون، أما بعد الزواج فسنكون أحراراً طلقاء، نفعل ما نشاء، دون أن نخشى عاقبة ما نفعل.. فقط، شيء واحد أريد أن تطمئنّي عليه، ذلك أن تعدني بأنك لن تنساني أبداً، لن تنسى حبيبتك التي وهبتك كلّ ما طلبت منها، وكلّ ما لم تطلبه منها. هذا، فقط، هو كلّ ما يهمّني.

وشددت على يدها، وأنا أقول:

- هذا شيء ما كان يحقّ لك حتى مجرَّد التفكير فيه، فأنا لا أستطيع أن أنساك، ولو حاولت ذلك؛ لسبب بسيط... بسيط جدّاً، هو أن شيئاً جديداً سوف لن يحدث في حياتي يمكنه أن ينسيني إيّاك، بل إنني أقولها لك صراحةً: أنا خائف منك... خائف أن تنسيك حياتك الجديدة إيّاي... حياتك الجديدة التي في طريقك إليها الآن؛ حياة البيت والزوج والأبناء.

- لا... لا تخف. إن شيئاً في الوجود، مهما عظم، لا يمكنه أن ينسيني إيّاك، لأنك أنت وجودي، وأنت كياني، ولأن حبّك يسري في عروقي، تماماً، كما تسري دمائي... أنت جزء مني، من حياتي، من وجودي، فكيف أستطيع الاستغناء عنك؟ ماذا تعتقد في حبيبتك الوفية المخلصة التي وهبتك نفسها

وقلبها وروحها، ومن غير أن يكون لها مطمع فيك؟ هل تعتقد أن أحداً يستطيع أن ينسيني إيّاك؟. لا... لا... ولا هذا الشابّ نفسه... إنني أعرفه جيِّداً.. أنه ابن أحد عمومتي كما تعلم، وأنا أعرف من أيّ نوع من الرجال هو.. إنه إنسان على سبيل الاستعارة، فهو جامد متحجِّر لا يعرف شيئاً من الحياة، ولا يفقه شيئاً من الوجود. تأكَّد أن ثقافتي أعلى من ثقافته، وأن اطِّلاعي أكثر من اطِّلاعه... وأنا ما كنت لأقبل الزواج منه وأرضاه لنفسي، لولا أنني أريد أن أعيش معك. حياتي الحقيقية ستكون معك أنت، وليست معه هو... إن هذا الرجل لم يكن أبداً الفارس الذي كنت أحلم به وأُمنّي نفسي بلقياه، وانتظرته كلّ هذه السنوات، وإنما هي الظروف كما ترى- أرغمتني على قبوله زوجاً لي، وهكذا فإن حياتنا أنا وهو، سوف لا تختلف كثيراً عن حياتك أنت ومريم. لماذا لا تنصفنا الأقدار، فيتزوَّج ابن عمي من واحدة مثل مريم، وأتزوَّج أنا من واحد مثلك أنت، حتى يكون هناك تكافؤ بين الأزواج، وتقارب في عقليّاتهم وآرائهم؟

إن ابن عمي هذا، لم أقبله زوجاً لي، إلّا لأن ظروفي التي لا تخفى عليك تجبرني على قبوله، فأنا- كما تعلم- لا أستطيع الرفض، وبماذا أتعلَّل إذا رفضت؟، ثم لا تنسى أن وفاة والدتي قد زادت من تعقيد موقفي، إذ أصبح والدي هو الآخر يرحِّب بزواجي، بل يتهلَّف عليه.. فهل تعتقد أن زيجة، هذه ظروفها وملابساتها، وأن زوجاً هذه نظرتي إليه، يستطيعان أن يُنسياني إياك؟ ماذا تظنّ؟

قلت: حسناً هذا... كفى.. إنني لا أريد أن أسمع أكثر ممّا سمعت، وأرجو ألّا تخيِّب الأيّام ظنّي فيك.

قالت: لا... لا تقاطعني، دعني أتكلَّم... دعني أقلْ كلّ شيء... هل تظنّني إنسانة بلا قلب؟ أتعتقد أن حبّك جاءني سهلاً حتى يذهب مني سهلاً، فأفرِّط فيه بسهولة ويسر؟ لقد أشقاني هذا الحبّ وأتعبني، وسهّرني الليالي الطوال قبل أن أتشجَّع وأبوح لك به... وقبل أن أعبِّر لك عنه، قضيت أيّاماً وليالي وحدي، أبكي حظّي وأندبه، لأنني لم أتعرَّف بك إلّا بعد زواجك، ولأنني لا أستطيع أن أعبِّر لك عن حبي... كنت خائفة، منك.. كنت أخاف إن أنا أفصحت لك عن حبّي أن تهزأ بي، وتسقطني من نظرك وتعتبرني واحدة من بنات الشوارع اللواتي يتاجرون بالحبّ... كلّ كلمة كنت أسمعها منك كانت تعذِّبني طوال ليلتي.

أكثر من سنة كاملة قضيتها على هذه الحال من العذاب، أتعذّب، وأشقى، وأسهر الليل... كنت أحبّك، لكنني لا أستطيع أن أعبِّر لك عن حبّي، لأنني كنت أقول، كلّما خلوت إلى نفسي: كيف أسمح لنفسي بحبّ هذا الرجل، بالذات؟، إنه رجل متزوِّج، وله ولد، وزوجته محسنة إليه، فكيف أخونها؟ كيف أسرق منها زوجها ووالد ولدها؟، ثم: هل أنا متأكِّدة من أنه يحبِّني، وأنه يبادلني مشاعري وإحساساتي؟ لماذا أحببته هو، بالذات، ولم أحبّ أيّ إنسان آخر سواه؟ لماذا لم أشعر بميل إلى أيّ شابّ من الشباب الذين كانو يتردَّدون على بيتنا في كلّ وقت.

تأكدَّ، يا سليم، أن كثيراً من الشبّان، من أقاربي، كانوا يتردَّدون على بيتنا، وكان في إمكاني أن أحبّ أيّ واحد منهم. لكن، ثق أنني لم أشعر بأيّ ميل لأيّ واحد من هؤلاء، رغم كثرتهم. أمّا أنت، فبمجرَّد أن رأيتك.. بمجرَّد أن وقع عليك نظري.. وبمجرَّد أن عرفتك وحادثتك، شعرت بأنني أحبّك، وبأنك ملكت كلّ مشاعري، وإحساساتي، وكنت أنتظر الساعة التي

أصارحك فيها بهذا الحبّ.. لكنّ سنة مضت، قبل أن أعرف نوع مشاعرك نحوي.. سنة كاملة قضيتها في عذاب.. في ألم.. مليئة بالدموع والسهر: أتعذَّب وحدي، وأسهر وحدي، وأشقى وحدي، وأنت لا تشعر بي، ولا تحسّ بوجودي إلى جوارك.

عندما كنت أسمعك تحادث مريم، أو تضحك معها في مخدعكما، كنت أنقم على مريم، وأراها الإنسان الوحيد الذي يحول دوني ودون سعادتي، وأتمنّى أن أكون أنا التي توجِّه إليها أحاديثك وضحكاتك وابتساماتك.. كنت أحسدها.. أحسد مريم على ما أنعم به الله عليها.. كنت أتعذَّب كثيراً كلَّما سمعت صوتك يصلني من خلف جدران الحجرة، لكنني ما كنت أملك سوى الدموع، أذرفها حتى تبلِّل شعري ووسادتي.

هذا هو موجز تاريخ حبّي لك، وهو تاريخ- كما تراه- حافل بالعذاب والألم والشقاء، فهل يمكنني أن أنسى كلّ هذا بسهولة، وأفرط فيه بيسر؟ هل يمكنني، حتى لو أردت، أن أنسى أيّامي معك.. أن أنسى كلّ هذا بسهولة وأفرِّط فيه بيسر؟ هل يمكنني أن أنسى جزءاً من حياتي، وهو الجزء المشرق المضئ، الذي لم أشعر بوجودي إلا خلاله.. خلال تلك الحقبة المشرقة من حياتي المظلمة؟ لا.. لا.. يا سليم، إنني سوف لن أنساك، مهما كانت الظروف، ومهما كانت الأحوال.. سأذكرت دائماً، وسأحنّ إلى أيّامك دائماً، وسأكون بجوارك في كلّ وقت، حتى لو حاولوا منعي عن مقابلتك، سأقابلك، سأتحدَّث معك، وسُأعيد حبّي وأجدّده معك، شاءوا أم لم يشاؤوا. أيّام قليلة فقط، ثم نعود بعدها كما كنّا، وأكثر ممّا كنّا.

تأكَّد أنه لو كان لي أمل في الزواج منك، ولو بعد عشر سنوات، لرفضت،

الآن، أن أتزوَّج، ولانتظرتك وتشبَّثت بذلك الأمل، لكنني متأكِّدة، كما أنت متأكِّد، أن زواجنا غير ممكن، وأننا لا نملك حيلة في هذا الأمر.. فإذا كانت لديك أيّة حيلة أو أيّ حلّ، فقله، وأنا مستعدّة أن أنفّذ معك كلّ ما تطلبه مني.. إنني مستعدّة لأن أنتظر.. مستعدّة لأن أضحّي بكلّ شيء من أجلك. قل لي، فقط، انتظري- يا فوزية- عشرين سنة أخرى، وأنا مستعدّة للانتظار.. ارفع إصبعك، فقط، وقل لي: اتبعيني، فسوف أتبعك إلى آخر الدنيا، فإن أحداً لم يبق لي سواك، لقد ماتت والدتي، ووالدي في حكم الأموات، بالنسبة إليّ، أمّا أنت فإني أعتبرك أبي وأمي وأخوتي وكلّ أقاربي.. كلّ ما يربطني بهذه الحياة.

إن شعوري هذا نحوك لم يكن وليد اليوم، إنما هو وليد الساعة التي عرفتك فيها.. وليد اللحظة... لحظة الضعف، بل لحظات الضعف الكثيرة التي انتابني بين يديك، وسلَّمت لك فيها نفسي وحياتي تفعل بها ما تشاء، لكنك لم تترك حتى آثار أصابعك على جسمي، لأنك إنسان متكامل... منذ تلك الليلة التي دخلت فيها حجرة نومك- لأوّل مرّة- عذراء، وخرجت منها عذراء، كما دخلت، علمت أنك إنسان عفيف.

وسكتت فوزية، وأخذت تجفِّف الدموع المنسابة على خدَّيها.. وأردت أن أتكلَّم.. أن أقول أيّ شيء ردّاً على ما قالته هي، لكنها سارعت تضع يدها فوق فمي، وتمنعني من الكلام، وترسم على ثغرها ابتسامة، ثم أخذتني من يدي، وهي تقول:

- لا تضيِّع الوقت في الكلام.. لا تضيِّع الفرصة الأخيرة في النحيب..

غادرت البيت بعد أن ودَّعتها، وأنا أحسّ بأنني أودِّع حياتي.. أودِّع

وجودي.. أودِّع الفترة المشرقة الوضّاءة من حياتي. وزاد شعوري بالنقمة على نفسي وعلى الظروف التي دفعتني إلى التسرُّع في الزواج، فاندفعت وراء نداء الغريزة، وضربت بنداء العاطفة عرض الحائط، شأني في ذلك شأن الكثيرين من شباب هذا المجتمع المنكود.

خرجت من البيت، وأخذت أذرع الشوارع، بعد أن شعرت بأنني أصبحت إنساناً آخر. لم أعد سليماً الأوَّل الذي عرفه الناس.. لم أعد أنا.. إن شيئاً في حياتي أخذ مني رغم أنفي ورغم إرادتي، دون أن أملك حتى حقّ الدفاع عن نفسي.. ولأوّل مرّة، بعد أن تعرَّفت إلى فوزية، وبعد أن أحببت فوزية وبعد أن عاهدتها على عدم تناول الخمر.. لأوَّل مرّة، بعد مرور أربع سنوات على ذلك الوعد الذي قطعته على نفسي، شعرت بقوّة خفيّة غير منظورة تسوقني- رغم مشيئتي- إلى خمارة جادّة عمر المختار.. دخلتها وأنا كالمنوَّم، دون أن أعي ما أفعل، إلى أن شعرت بثقل في رأسي وتخدُّر في أعصابي، فنهضت متحاملاً على نفسي عائداً إلى البيت.

وكانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً، عندما دخلت حجرة نومي، وتمدَّدت على الفراش بكامل ملابسي، وقبل أن أستغرق في النوم تماماً، شعرت بيد تمسح على جبيني، ففتحت عيني لأجد فوزية تنظر نحوي في أسف وحسرة، وآثار دموع لم تجفّ، بعد، على وجنتيها.. ونظرت إليها في بلاهة، أوّل الأمر، وكأنني أراها لأوَّل مرّة في حياتي، ثم جلست وأخذت أحملق فيها برهة من الوقت، دون أن أتكلَّم، إلى أن قالت هي:

- تحب نعملك قهوة يا سليم، وألّا شاهي؟

وأجبتها، في انفعال ونرفزة:

- لا.. احتفظي بقهوتك وشاهيك لزوجك اللي أنت متلهفّة عليه..

ونظرت نحوي، دون أن تقول شيئاً، ثم اغرورقت عيناها بالدموع، مرّة أخرى.. لكنني لم أهتمّ بها، ولم ألتفت إليها، إنما التفتّ إلى الناحية الثانية، وعدت إلى النوم، من جديد.. وشعرت بها تنهض من جواري وتسارع بخلع (جاكيتتي) وحذائي، ثم تسحب الغطاء فوقي، وتطفئ النور، وتغادر الحجرة.. ولم أستيقظ من نومتي تلك إلّا في ساعة متأخِّرة من مساء اليوم التالي، فبدأت استعرض الشريط الذي مرَّ بي في ليلتي تلك، وألوم نفسي على ما صدر مني في حقّ فوزية. وقبل أن أغادر المنزل، خرجت فوزية من حجرتها، وجاءت تجلس إلى جواري وآثار البكاء واضحة في عينيها. وبعد فترة صمت، قالت من خلال دموعها، والعبرات تخنقها:

- أنا أعلم، يا سليم، أنني وحدي السبب المباشر في كلّ ما حدث لك من تعب وشقاء، وما قد يحدث لك مستقبلاً؛ فلولاي لما عرفت أنت شيئاً من هذا الذي تعانيه وتقاسيه من تعاسة وحرمان.. إنك- لا شكّ- تلعنني، وتلعن الساعة التي عرفتني فيها، بينك وبين نفسك، وأنا لا ألومك على شيء من هذا، فليتني، يا سليم لم أظهر في حياتك، وليتني لم أتعرَّف إليك؛ فلولا وجودي أنا لما عرفتَ أنت الشقاء ولما تجرَّعت المرارة. لقد بدأت أشعر بأن ضميري يؤنِّبني ويوبِّخني على ما سبَّبته لك، خاصَّةً بعد عودتك الليلة الماضية، مخموراً. لكن، ما باليد حيلة لقد فات أوان التوبة، ولا أستطيع أنا ولا أنت عملَ شيء أو إصلاح ما فسد.

ثم سلَّمتني فوزية رسالة، هذا نصّها:

(وأخرج سليم من جيبه رسالة أخذ يقرؤها)

«عزيزي، وقرّة عيني سليم الحبيب..

- تحيّةً وأشواقاً حارّة أهديهما إليك، معبِّرتين عن حبّي وإخلاصي وتمنِّياتي لك بالسعادة والهناء.

وبعد.. كم يؤسفني أن أكتب أوَّل رسالة منّي لأوجِّه لك فيها لومي، وعذري في ذلك أنني متأسِّفة أشدّ الأسف لما سبَّبته لك، وما دفعتك إليه دفعاً، ومتألِّمة، يا حبيبي، لسوء تصرُّفك ليلة البارحة.. لقد استيقظ ضميري، وأخذ يؤنِّبني ويوبّخني، بعد أن رأيتك البارحة في تلك الحال المؤسفة المؤلمة، وأنا هنا، أودّ أن أسألك: هل يليق بك أن ترتكب ما ارتكبت؟ هل تطاوعك نفسك وإنسانيّتك على أن تدخل خمّارة، وتتناول الخمر؟

لا.. لا يليق بك مثل هذا المسلك، ولا أنا أرضاه لك، على الإطلاق.. أفهل نسيت، يا حبيبي، كلّ الوعود والعهود التي كانت بيننا؟ ألم تعاهدني، يوم شبكنا أيدينا، واتَّفقنا على ألّا تتناول الخمر، مدى حياتك؟، فكيف تطاوعك نفسك على الحنث بوعدك والتخلّي عن عهدك.. أنا لا أرضى، أبداً، لمن أحببته ووهبته حبّي، أن يتصرَّف مثل هذا التصرُّف المشين...

تأكَّد من أنني متألمة أشدّ الألم لما بدَر منك، لدرجة أنني قضيت ليلتي في بكاء مستمرّ لم يغمض لي جفن، ولم أذق طعم النوم والراحة.. لقد بكيت ولازلت أبكي، حتى الآن، فهل يرضيك، ياحبيبي، أن تؤلم حبيبتك التي أخلصت لك في حبِّها، ووهبتك قلبها، فتربَّعت على عرشه، دون منازع، ووهبتك روحها وعقلها وكلّ كيانها؟ لا.. لا أعتقد أنك ترضى بهذا أو تقبله،

ولأنني عهدت فيك الحبيب المخلص الحنون، صاحب القلب الشفوق. إنني أستحلفك بالله، وبحبِّنا القويّ، الذي ترعرع بيننا طوال أربع سنوات، ألّا تتناول أيّ نوع من أنواع الخمر، بعد اليوم، فهل تعدني؟ إنني لا أرضى، ولا أقبل، أبداً، أن أراك أو أسمع عنك ما شاهدته ليلة البارحة، إذ كنت تترنَّح بين الجدران والأشجار. وختاماً، أرجو عدم المؤاخذة على هذه الجرأة في كلامي هذا، الذي ما كنت أعتقد أنه سيكون أوّل ما أكتبه إليك.

حبيبتك المخلصة (فوزية)

وانتهى سليم من قراءة الرسالة، فقبَّلها عدّة مرّات، قبل أن يعيدها إلى جيبه، من جديد، ليجلس صامتاً في جلستنا تلك، التي امتدَّت حتى الساعات الأولى من الفجر؛ سليم يروي قصّته وأنا أستمع إليه. انتظرت أن يستمرّ سليم في سرد قصّته، وعندما طال صمته، سألته:

– ثم ماذا؟.. ماذا حدث بينك وبين فوزية؟

– لا شيء.. كان هذا آخر المطاف.

– أقصد: هل تزوَّجت ابن عمها؟ هل عادت إليك؟ هل عدتما كما كنتما؟

إنني أريد أن أعرف كلّ شيء.

أجل، تزوَّجت ابن عمّها المزعوم، وذهبت إلى بيروت. وبعد عشرين يوماً من زواجها، عادت إلى هنا، مرّةً أخرى، مع زوجها، وعرَّفتني به، وكان ذلك يوم أن مررت من أمام منزلهما، و–صدفةً– كانت عائدة معه من أحد الأماكن، ربَّما من زيارة، وما إن رأتني حتى هتفت باسمي: (سليم!!)، والتفت زوجها ينظر من هو سليم هذا؟. فقدَّمتني إليه على أساس أنني صديق والدها، وأنها كانت تقيم في بيتنا عند مجيئها إلى طرابلس، واستقبلني الرجل استقبالاً حارّاً، وأقسم أن أدخل معه إلى منزله، حيث جلست في

حجرة الجلوس إلى جانبه، في مواجهة فوزية، وقد وجدته تماماً كما وصفته لي، كان، فقط، يتقن اللغة (الفرنسية) التي يستعين بها في حديثه، أمّا لغته الأصلية فإن مستواه فيها لا يزيد على مستوى تلميذ سنة ثالثة، ابتدائي.. وقضيت فترة من الوقت معهما، تلك الليلة، ثم خرجت مودِّعاً إيّاهما، على أمل اللقاء بهما في المستقبل، حيث وعدتهما بالزيارة، الفينة بعد الفينة، وقصدي من ذلك ربط الصداقة مع زوجها حتى أتمكَّن من لقائها. ورغم الكراهية التي أحملها لهذا الزوج فقد توطَّدت بيني وبينه صداقة من نوع ما.

كنت أكرهه لأنني أعتبره خصمي الوحيد الذي سلب مني سعادتي، وحرمني من الإنسانة الوحيدة التي أحببتها كما لم أحبّ إنساناً آخر سواها، وإلى اليوم لازلت أحبّها، رغم كلّ ما حدث، ورغم البعد الذي يفصل بيننا. وعن طريق صداقتي لزوجها، تمكَّنت من الالتقاء بها عدّة مرّات، غير أن تلك اللقاءات لم تستمرّ طويلاً، ثم انقطع بيننا كلّ شيء، بعد أن عُيِّنَ زوجها رئيساً لقسم في شركة من شركات البترول التي تعمل في الصحراء، واضطرّ أن يصحب زوجته معه لتقيم قريبة منه في مدينة بنغازي..

ومنذ ذلك اليوم، الذي سافرت فيه فوزية مع زوجها، لم أعد أراها، ولم أعد ألتقي بها، فرغم أننا نعيش في بلاد واحدة، ورغم أنني زرت بنغازي أكثر من مرّة، فإننا لم نعد نتقابل ولم يعد أحدنا يرى الآخر أو يحادثه، أو حتى يكتب إليه.. وقد تسأل: كيف ذلك؟، وما يمنعك من زيارتها، ما دمت تذهب إلى بنغازي، الحين بعد الحين؟ فأجيبك: إن زوجها حال دوني ودونها، منعَها عن محادثتي وعن مقابلتي، لا لشيء سوى أنه أراد أن يتأقلم مع المجتمع الذي يعيش فيه، ومجتمعنا لا يسمح بمثل هذه الزيارات والمقابلات.

لكن، ثق، يا دكتور، بأنني- رغم كلّ ما حدث- لازلت أذكرها، ولا أزال أذكر الأيّام السعيدة التي عشتها مع فوزية، لكنني لست أدرى: هل لا تزال تذكرني هي الأخرى، أم أنها نسيتني، واعتبرتني مجرَّد سحابة صيف مرَّت في حياتها؟

وكم مرّة حاولت فيها أن أضرب صفحاً عن الماضي؛ أن أنساها مثل ما نسيتني!. لكن، عبثاً حاولت؛ فإنني- أقسم لك بالله- لازلت أحلم بها كلّ ليلة، وأتمثّلها، دائماً، أمامي، لا يفارقني خيالها، ولا يغيب عني طيفها.. ذلك لأن شيئاً جديداً في حياتي لم يحدث حتى ينسيني إيّاها، أمّا هي فمن يدري ما الذي غيَّرته فيها حياتها الجديدة.. حياة البيت والأولاد والزوج؟ من يدري كم من الأولاد عندها، الآن!

لك أن تضحك مني، يا دكتور، ما شاء لك الضحك، ولك أن تصفني بالجنون، ما شاء لك الوصف، خاصّة إذا علمت أنني، إلى يومنا هذا، لا أزال أحتفظ بتذكارَيْن منها أهدتهما إليّ ذات يوم، هما: هذا الخاتم الذهبي الذي أحمله في أصبعي، وهذا المشط الأخضر الفاقد بعض أسنانه، الذي أحمله في جيبي. إنني مجنون، معتوه.. صفني بما تشاء، لكن، لا تنسَ أنني مجنون بحبِّها، ولا يمكنني أن أتخلّص من هذا الجنون، رغم علمي باستحالة لقائي بها مرّة أخرى! وما فائدة ذلك اللقاء؟، وماذا أجني من ورائه؟ أنا لست أنانياً حتى أتمنّى لها العودة إليّ، مرّة أخرى، ولأنني أدرك أن عودتها إليّ لا يمكن أن تكون إلّا على أنقاض سعادتها، وأنا لا أريد لها سوى السعادة والهناء. كلّ ما أرجوه، وأتمنّاه، هو أن تكون سعيدة في حياتها، بين زوجها وأولادها، وأن تذكرني، دائماً، كما أذكرها دائماً، هذه هي أمنيتي، خاصّة بعد أن تجاوزت الثلاثين من عمري، وبدأ الشيب يتسرَّب إلى شعر رأسي، وأكبر أبنائي قارب أن يكون في مثل طولي.

وانتهى سليم عبدالملك من سرد مأساته، فقام متوجِّهاً إلى بيته وزوجته، التي، لا شكّ في أنه قد عاد إليها بقلب جديد، وشعور جديد، وحبّ جديد.. ونمت أنا بقيّة ليلتي، وكأن شيئاً لم يحدث. وفي صباح اليوم التالي، لم أتَّجه إلى عيادتي في الموعد المحدَّد، إنما جلست استعرض حوادث المأساة التي سمعتها والتي حدثت لسليم عبدالملك، ويمكن أت تحدث، في كلّ وقت، مع غير سليم عبدالملك، فأمثال عبدالملك ومريم كثيرون، يعيشون خلف جدران البيوت، ولا أحد يدري ماذا يحدث بينهم، ولا كيف يعيشون، ولا كيف يتعاشرون.. ثم أخذت أسائل نفسي: ترى، هل لا تزال (فوزية) على عهدها لسليم؟.. هل لا تزال تشعر نحوه بمثل ما يشعر به نحوها؟ هل لا تزال تذكر أيّامه ولياليه ولحظات الحبّ التي قضتها معه؟ هل لا تزال تحافظ على وعودها وعهودها التي قطعتها له على نفسها بالحبّ والوفاء؟ هل لا تزال تذكر شيئاً من الألفاظ المعسولة التي سكبتها في أذنيه، ذات يوم، عندما قالت له من كلّ قلبها «سأذكرك، يا سليم، وسأحبّك إلى الأبد»؟ هل لا تزال، وهي، الآن، في أحضان زوجها، وبين يدي ابن عمها، تذكر ذلك الرجل الذي منحته يوماً، عن طيب خاطر، ما تمنحه لزوجها، الآن؟

ترى، هل تذكر فوزية الرجل الوحيد الذي أحبَّها، وأخلص لها في حبِّه،

وخان جميع قيمه ومبادئه في سبيل حبِّها، وضحّى بكلّ شيء، واستهان بكلّ شيء من أجلها؟ هل تذكر، الآن بعد أن حطَّمته، وحطَّمت حياته، و- ربَّما- مستقبله، أيضاً، كيف اقتحمت عليه حياته النظيفة المستقرّة الهادئة، فعكَّرتها ولوَّثتها، ثم خرجت منها، فجأةً، كما دخلتها، لتهدأ هي، وتستقرّ وتنعم، بينما يشقى هو ويتعذَّب ويقاسي الويلات؟

هل تذكر فوزية كلّ هذا، أو حتى بعضاً من هذا، بعد أن تزوَّجت، واستقرّت، وأنجبت.. بعد أن نعمت بالحياة، وسعدت بالزواج؟

توقَّفت عن طرح هذه الأسئلة، وسارعت أنادي الحاجّة زينب التي أقبلت مسرعة، فقلت لها مبتسماً:

تذكري يا حاجة أني قلت لك مرّة، أني قرّرت الزواج، وطلبت منك تبحثي لي عن زوجة بنت حلال؟

- خالتك الحاجة ما تنساش، وما تهملش.. إني اهتمّيت بك، ودوّرت على بنت الناس اللي تصلح.

- لكن أني غيَّرت فكرتي، يا حاجّة.

- اسم الله عليك.. علاش يا دكتور؟ عمرك خمسة وأربعين عام، شنو مازال تستنّي؟ أندادك أصبحوا جدود.

- أنت ما فهمتيش قصدي.. أني بعد الحكاية التي سمعتها من سليم، قرّرت لابدّ نختار زوجتي بنفسي.

- عيب!!.. شنو ها الكلام اللي تقول فيه، يا دكتور؟ انت تختار زوجتك

بنفسك؟ تحسبنا انصَارَى؟.. زوجتك، يا دكتور، لابدّ تختارها لك واحدة قريبتك: أمّك، أختك، عمّتك، أمّا حكاية تختارها بنفسك، هذا شيء جديد.. موضة جديدة، عمرنا ما سمعناها!.

- لكن، يا حاجّة، هي أمّي ولا أختي اللي بتعيش معها؟ مش أني اللي بنتزوّجها، وبتعيش معاي؟.. أنا ما نفهمش شنو فيها لو إني اخترت بنفسي! حرام؟

- إيه يا وليدي، ياريت حرام وبس، لكن الحكاية هذي عيب.. عيب كبير..

- افرضي أمّي هي اللي تختار لي، كيف بتختارها؟

- هذي ساهلة.. تختارها بنت ناس، وعاقلة، عقلها ما لي دماغها تقعد من الصبح حتى الليل ما تسمعش منها كلمة، مش كيف بنات اليوم اللي حفظوا كلمتين من الراديو، والجريدة. بدت الواحدة منهم حاسبة نفسها هي وبس.. ومع العقل، والثبات تختار ها جميلة.. شباب طول وعرض، ها الباب ما يدخلها، بيضة حمرة، تستحي منها الشمس والقمر..

- هي هذي الحاجات التي تختاروا فيها، يا حاجّة، كيف تمشوا تخطبوا؟

- وشنو تبي أكثر من هذا كلّه؟

- يعني ما فيش حاجة تانية تبحثوا عنها؟

- لا.. هذا هو اللي يبحث عليه الراجل في المرا.

- طيِّب يا حاجّة.. شكراً، خليني انفكّر شويّة، وبعدين انقول لك.

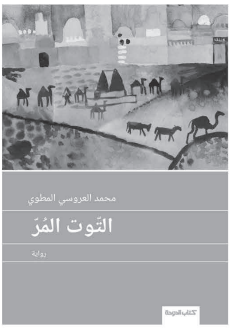
صدر من سلسلة كتاب الدوحة

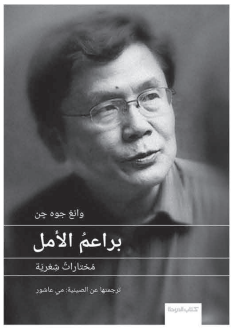
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
--	فتنة الحكاية جون أيديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش

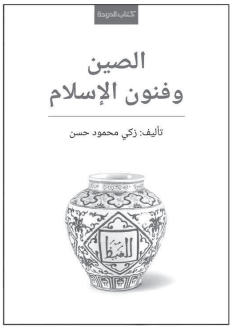
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير"	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحـوُّلات الصـفـوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلـــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

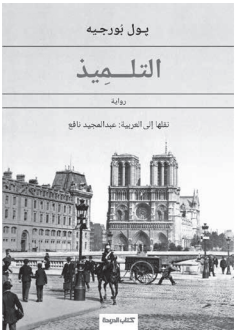












يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com

... عادت مريم تحمل فنجان القهوة، ثم وضعته أمامي دون أن تفوه بكلمة واحدة، والتفتت إلى الوراء تبغي الخروج من الحجرة، فأمسكتها من يدها مبتسماً، وطلبت منها أن تجلس بجواري لأن لي حديثاً طويلاً معها. جلست مستسلمة، وفي عينيها نظرة استغراب واستفهام، شحنتها بكل ما في العالم من علامات التعجُّب لهذه الدعوة غير المنتظرة مني.رشفت قليلاً من فنجان قهوتي، ثم مرّت فترة صمت بيننا، دون أن أنبس بكلمة، وكأنني أهيِّئها لسماع ما سأقول لها، ثم اعتدلت في جلستي، وقلت:

هل رأيت كلّ هذه الكتب التي تعمر تلك الخزانة؟

وهزَّت رأسها، دون أن تجيب بكلمة.. أشعلتُ أنا سيجارة، وبدأتُ أنفث دخانها، في هدوء، حلقات فوق رأسي، ثم تابعت كلامي:

إن أقلّ كتاب منها، لا يقلّ ثمنه عن خمسين قرشاً.

- وما دخلي أنا في ذلك؟ لو سمعت كلامي لما أتعبت نفسك في شراء كلّ هذه الكتب... ما فائدتها لك؟

ولم أجبها عن سؤالها هذا، بل عدت أقول:

سأعقد بيني وبينك صفقة تجارية مربحة لك: سأدفع لك جنيها كاملاً عن كلّ كتاب تقرئينه منها.